

# كتاب نزيك

يصدر عن:

عن وزارة الإعلام

الإشراف العام

د. عبدالله بن ناصر الحراصي

وزير الإعلام

رئيس التحرير

سيف الرحبي

مدير التحرير

هدى حمد

المحرر المسؤول

عبدالرحمن المسكري

الإخراج الفني

خالد الحضرمي

الإصدار الواحد والخمسون - يوليو 2021م

الموافق ذي القعدة 1442هـ

عنوان المراسلة:

ص.ب 855 الرمز البريدي: 117

الوادي الكبير، مسقط - سلطنة عُمان

هاتف: 24601608 (00968)

فاكس: 24694254 (00968)

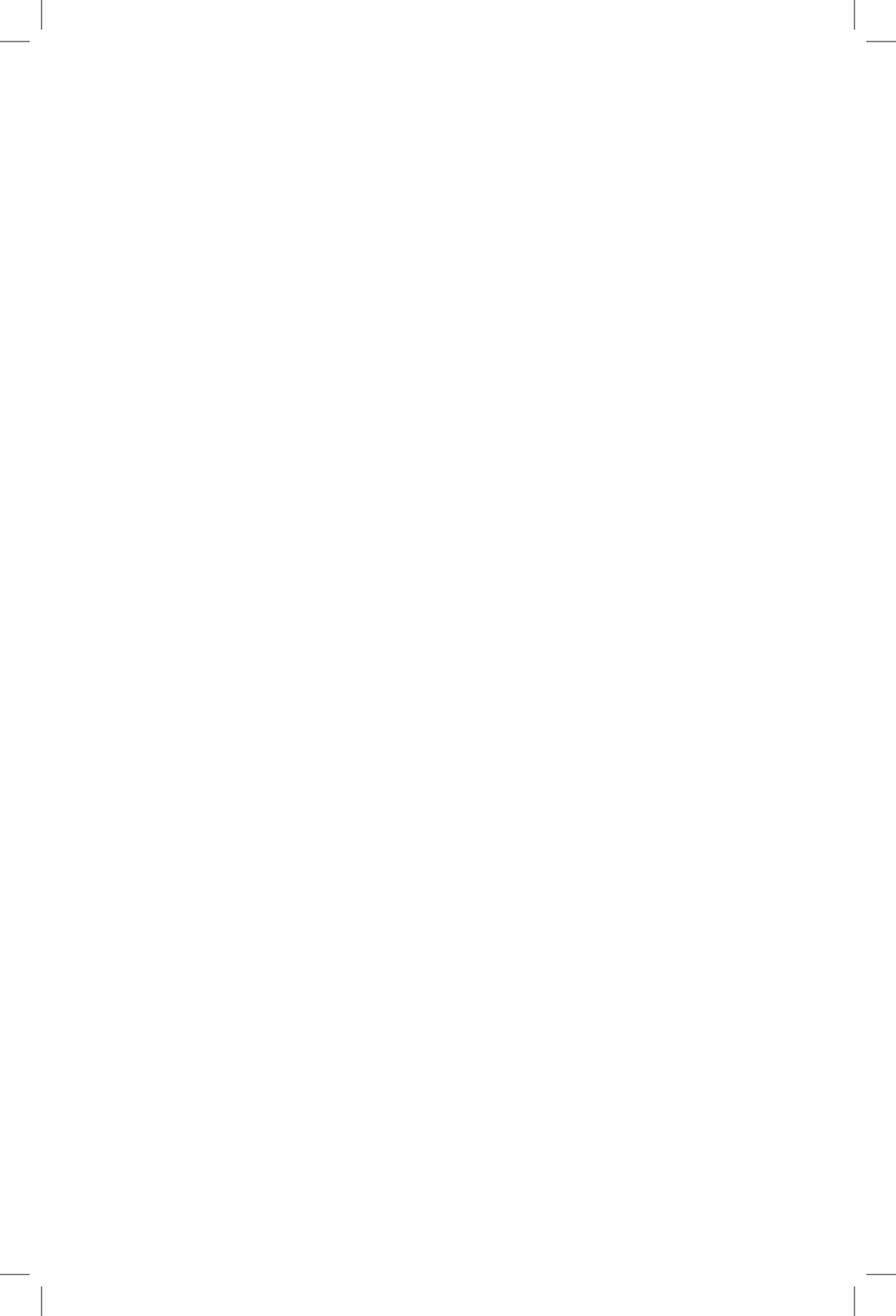
nizwa99@nizwa.com

nizwa99@omantel.net.om



## الفهرس

7	..... المقدمة
11	..... أولا: معابر تشكل الصورة الأوروبية
25	..... ثانيا: الإفرتج والنصارى، أي معنى؟
39	..... ثالثا: الأوروبيون وشكل البدايات
40	..... 1- أولى الانطباعات
44	..... 2- اليقظة السياسية
53	..... رابعا: بواعث نظرة التوتّر والقلق
55	..... 1- الحذر السياسي
59	..... 2- القلق الثقافي
63	..... 3- صورتان متضادّتان
71	..... خامسا: حقبة الانبهار والإعجاب
72	..... 1- مذكرات أميرة عمانية
75	..... 2- تنزيه الأفكار والأبصار



الأوروبيون في مدونات  
التراث العماني  
( ١٤٩٨ - ١٩٥٠ )

ناصر السعدي



## مقدمة

مضى وقتٌ طويل حتى تعرّفت الثقافة العُمانية على أوروبا، وليس بالإمكان العثور على إشارة - ولو من بعيد- لتلك القارة ولا إلى شعوبها وثقافتها في نصوص التّراث العُماني المدوّن والمكتوب قبل القرن الخامس عشر الميلادي. وإن كانت هناك معرفة غير مدوّنة على سبيل الافتراض لا تبتعد عن كونها معرفة غير واعية، وأقصى حدود معرفتها بالأوروبيين أنهم شعوب ينتمون إلى أحد أجزاء هذا العالم، ويقطنون في مكانٍ قصيٍّ عن الجغرافيا العُمانية. ومع التحوّلات الكبرى التي أعقبت حركة الكشوفات الجغرافية، جاء الأوروبيون تبعاً إلى سواحل المحيط الهندي، ثم إلى السواحل العربيّة عموماً. وبسطت تلك الأمم الهيمنة العسكرية والسياسيّة، وفرضت وجودها بقوة المدافع، حتى إنّ العنف والمجازر التي ارتكبتها أول أمة أوروبية بحق بلدان المنطقة لم يكن لها مثيلٌ. هكذا قدم الأوروبيون إلى السواحل العُمنيّة، وهكذا بدأ التعارف، فكان أثر هذه البدايات عميقاً، ظلّت تسيّر الذهن العُماني وتتحكّم في نظرتة لتلك الشعوب زمناً طويلاً، وأسهم السلوك الاستعماري الأوروبي على مدى الخمسة القرون الأخيرة في ترسيخ نظرة سلبية، لم تستطع الأيام والسنوات من محوها تماماً من الذاكرة العُمانية، إنما خفّفت من حدتها، وظهرت إلى جانبها صورة آخذة معنى أكثر إيجابية، أسهمت في صناعتها العلاقات السياسيّة، ووسعت الرحلات العُمانية إلى الغرب دائرة الأفق العُماني، وعرف الإنسان الأوروبي في أرضه، ورأى إنساناً آخر غير ذلك الإنسان الذي جاء ويحمل بين كفيه البندقية.

تهدف هذه الدراسة إلى تتبع نصوص التراث العُماني، واستجلاء صورة الشعوب الأوروبية ومراحل تطورها من بين ثناياها. ومع وجود الدراسات العديدة التي تناولت علاقة عُمان بتلك الشعوب، إلا أنها ركّزت في الغالب على مناقشة العلاقات السياسيّة دون غيرها؛ بل إنّ أغلبها يستند على المصادر الأوروبية، ويتجاهلُ مدونات عُمانيّة تقدّم صورة أخرى تختلف عن تلك الصورة التي تقدمها الرواية الأوروبيّة. ونقصد بمدونات التراث العُماني هنا كتب الأدب والفقه والتاريخ والرحلات، التي كتبت بأقلام عُمانيّة، بين الحقبة الزمنيّة الممتدّة من أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وحتى منتصف القرن العشرين. وتعتمد الدراسة على المنهج التحليلي الذي يبتغي تحليل النصوص، واستقراء مضمون الصورة الأوروبية من خلالها، والوقوف على السّياقات التي أنتجتها، وتعقب مراحل تطورها ومتغيّراتها من زمنٍ إلى آخر.

وتتكوّن الدراسة من خمسة محاور. الأول: ناقش المنافذ التي عبّرت من خلالها الصورة الأوروبية إلى الثقافة العُمانيّة. وأمّا المحور الثاني: فركّز على تتبع المفاهيم والتّسميات الاجتماعيّة والدينيّة التي عرّفت بها الثقافة العُمانيّة الشعوب الأوروبيّة، مثل الإفرنج والنصارى. في حين تناول المحور الثالث: الأوروبيين وشكل البدايات، وذلك من خلال رصد الانطباعات التي تشكلت في الذهن العُماني عن البرتغاليين في حقبتين زمنيّتين، قبل عام 1624م وما بعده. والمحور الرابع: تطرّق إلى بواعث التوتّر والقلق الذي ساد الذهن العُماني بعد عام 1798م. وأخيراً؛ تناولت الدراسة المظاهر الأوروبيّة التي أبهرت الإنسان العُماني وأثارت إعجابه، من خلال نصّين ينتميان إلى أدب الرحلة: الأول: مذاكرات أميرة عربية للسيدة سالمة



بنت سعيد. والثاني: تنزيه الأبصار والأفكار في رحلة سلطان زنجبار. واعتمدت الدراسة على قائمة من نصوص التراث العُماني، وهي نصوص ذات خلفيات وانتماءات أدبية وفقهية وتاريخية، وتفصيل هذه النصوص مثبتٌ في هامش هذه الورقة البحثية وقائمة مصادرها ومراجعتها في آخر الدراسة.



## أولاً: معابر تشكّل الصورة الأوروبية

## أولاً: معابر تشكّل الصورة الأوروبية

تُمثّل حركة الكشوفات الجغرافية، وما أعقبها من تغيّرات جذرية على مستوى العالم الحدث الأبرز الذي أدخل المجتمع العُماني في علاقات مع أممٍ وشعوبٍ لم يعهدوا من قبل، وتم ذلك عبر منفذين: الأول، ظهور الأوروبيين على بحر العرب وبرزه بُعيد وصول البحار البرتغالي فاسكوا دي جاما إلى الهند عام 1498م. الثاني: الرحلات التي وصلت إلى عمق البلاد الأوروبية منذ أول رحلة عُمانية ذَكَرًا.

### ظهور الأوروبيين على بحر العرب وبرزه

كتب خميس بن راشد العبري<sup>(١)</sup> (ت: 1854م) عام 1836م: «سرت يوماً إلى زيارة صاحب، فرأيته حزينا كئيبا من الزلزلة التي رجفت الأرض منها، في ساعة القمر من ليلة الأربعاء في ليلة النصف من شهر صفر من شهور سنة اثنتين وخمسين سنة ومائتي سنة وألف، الميزان والقمر في برج القوس، قال: فيدلّ على أنّ النصارى تظهر على برّ العرب»<sup>(٢)</sup>. ولا يقصد هنا الظهور بمعنى الوجود بعد الغياب، إنما القصد الغلبة والقوّة على الأمر. وتعود جذور غلبة الدول الأوروبيّة على بلدان المحيط الهندي إلى حركة الكشوفات الجغرافية التي جاءت لتؤكّد ظاهرياً «فرضية وجود محيطٍ متّصل، التي طرحها أولاً هكاتايوس، ورفضها بطليموس وأتباعه العديدين»<sup>(٣)</sup>. ولم تكن الغاية من تلك الحركة أهدافاً علميّة كما يُروّج لها في بعض الأدبيات الأوروبية؛ وإنما توسّع واستعمار، وقد بدأت مع البرتغاليين عام 1498م، حيث تمكّنوا من السيطرة على أجزاء واسعة من المحيط الهندي. ثم لحقت بهم أممٌ وطوائف، مهّدوا لغاياتهم الدفينة

بشركات تجارية، تأسست تباعاً؛ ففي عام 1600م أصدرت ملكة إنجلترا مرسوماً يقضي بإنشاء شركة الهند الشرقية الإنجليزية، وبعد أقل من سنتين ظهرت شركة الهند الشرقية الهولندية عام 1602م<sup>(4)</sup>. ثم أعقبتهما بعد أكثر من نصف قرن شركة الهند الشرقية الفرنسية عام 1664م<sup>(5)</sup>. هذا الجموح والتهافت الأوروبي على الشرق عبّر عنه الرحالة البريطاني ألكساندر دوغلاس (Alexander Douglas) م(1882-1962)، بقوله: «في القرنين السادس عشر والسابع عشر كان العالم الغربي في أوج تطعه للتوسّع. كانت كل العيون الغربية مركزة على الشرق تحثّها الرغبة إلى التجارة... كان البرتغاليون الأوائل في هذا المضمار، وتلاههم الهولنديون ثم جاء الإنجليز في سباق على الغنيمة ذاتها»<sup>(6)</sup>. لم تكن التجارة وحدها من حثّ الأوروبيين على التهافت نحو الشرق، فهناك مزيجٌ من الرغبات والمطامع السياسيّة والدينيّة، ولا يخلو الأمر حتى من دوافع اجتماعية، إذ بلغت عدد الأسر البرتغالية التي نزحت إلى مدينة غوا الهندية خلال ربع قرن من وصول البرتغاليين حوالي (450) أسرة<sup>(7)</sup>. ويصف غاشيار كورّيا نتائج وصول البرتغاليين إلى الشرق بما نصه: «تم اليوم بناء الكثير من الأديرة والكنائس لعبادته، وازداد عدد المجتمعات المسيحية التي انتقل أبناؤها إلى الدين القويم»<sup>(8)</sup>. ولم يمضِ وقت طويل من وصول فاسكو دي جاما حتى وقعت السواحل العمانية ضحية لهجماتٍ عنيفة من قبل القائد البرتغالي دلبوكيرك، الذي وصل عام 1507م بعشرين سفينة تحمل على متنها حوالي (2000) جندي، وخلال أقل من سنة حرق مدناً عمانية زاهرة، كانت بوابات للهند والصين وخزائن لأهل الشرق، مثل قلعات وقريات ومسقط وصحار وصولاً إلى أقصى شمال عُمان.

هكذا تأسس أول حضور أوروبي، وبهذه الطريقة العنيفة بدأ التعارف بين

الطرفين؛ لأن فاسكوا دي جاما ومن على شاكلته من الأوروبيين كان لديهم اعتقاد بأنه: «ليس ثمة مورو (مسلم) يذعن ويسلم لغيره إلا بعد الأذى والإكراه»<sup>(9)</sup>. فنتج عن وصول البرتغاليين إلى الشرق تحولات عميقة، حرّفت حركة المجتمعات الشرقية عن مسارها الطبيعي، وخصوصاً عُمان بسبب موقعها في عمق هذا التحول؛ إذ نقلت الثقافة العُمانيّة إلى فضاء جديدٍ لم تعهده من قبل، بعد أن ظلّت محصورة على عتبات الفضاء الآسيوي وبين أممه وشعوبه وثقافته<sup>(10)</sup>. وهذا التجاهل سببه انعدام ما يثير الشعور العُماني تجاه أمم لا يربطه بها رابط وجداني ولا ثقافي ولا حتى جغرافي، ولكنّ بمجرد أن اقتربت وفرضت نفسها بالقوة، كانت الدهشة كبيرة، وبدا كلُّ شيء مختلفاً، بدءاً من سحنات الوجوه، واللغة، وشكل السفن، والأسلحة، والصليب الذي يعتلي الأشرعة والصواري، إضافة إلى الممارسات المدفوعة بالعاطفة الدينيّة والمحمّلة بالأحقاد تجاه العرب والمسلمين عموماً. هذا الحدث المثير أو الكارثة -إن صح التعبير- أثار حاسة التساؤل، حول هوية دلبوكيرك ومغزى مجيئه إلى بلاد لا تمتُّ بصلةٍ إليه، وكان يواجه هذا السؤال في كل مدينة، تقترب منها «غربان النصارى»<sup>(11)</sup>، أو تصوّب مدافعها نحوها. فقد سأله أهل قلّهات وسألته المدن الأخرى: من تكون، وما الذي جاء بك إلى هذه البلاد، وماذا تريد؟ ويأتي جوابه دائماً مزيجاً من الغطرسة والتعصب، وهذا ما يظهر من كلامه حين يقول: «آلام يسوع المسيح كانت لخلصنا، وإني أضع كل ثقتي فيه لتحطيم أرواح هؤلاء المسلمين وتحويل تبعيَّتهم وما يدفعون لملك هرمز إلى سيّد ملك البرتغال»<sup>(12)</sup>.

لم تخلق الطريقة التي أتوا بها انطباعاً إيجابياً، ولم تترك أثراً حسناً، إنّما تركت أثراً سيئاً بقي محفوراً في الذاكرة العُمانيّة طويلاً، بحرمانهم من بلادهم وتجارّتهم<sup>(13)</sup>، بل مسّ حتى وجدانهم الديني، بتأسيس مراكز

تبشيرية وكنائس على طول السواحل العُمانية، واستخدمت القوّة لتحويل الناس عن دينهم ومعتقداتهم<sup>(14)</sup>. وأمام هذا الخطر السياسي والثقافيّ الدايم حاول أهل عُمان مواجهة ذلك الغريب النازل؛ إلا أنّ حالة التردّي والفرقة التي سادت المشهد السياسي آنذاك حدّت من إمكانية المواجهة المنظمة والجادة، التي قد توّدي إلى لفظه خارجاً<sup>(15)</sup>؛ ناهيك عن تجاهل الشعراء والفقهاء والعلماء الألام والمآسي التي حلت بالمجتمع<sup>(16)</sup>، ودام هذا التجاهل المعرفي المتعلق بالبرتغاليين، ولم يتحسن إلا قليلاً بعد عام 1624م. توحدت عُمان تحت حكم مركزي بقيام دولة اليعاربة، واستفاق أهل عُمان من غفلتهم، ودفعتهم هذه اليقظة إلى توجيه أنظارهم نحو البرتغاليين، فقد توفي الإمام ناصر بن مرشد (ت: 1649م) ولم يبق للبرتغاليين من باقية باستثناء في مسقط، ليستكمل المهمة بعده الإمام سلطان بن سيف اليعربي (ت: 1680م). ومع ذلك؛ لم تنتج عن هذا التحول السياسي قطيعة تامة مع الأمم الأوروبية الأخرى<sup>(17)</sup>، فقط الذي حدث هو تغيّر شكل العلاقة، وأصبح «يسيطر على كل منهما روح التعالي والتفوق على الآخر»<sup>(18)</sup>. ولم تعد الذات العُمانية تلك الذات المهزوزة والغارقة في أحوال الصراع والنزاع، فقد عاد إليها التوازن، وغدا الأوروبي ينظر إليها بمنظور التكافؤ والندية، ويحسب لها حساباً.

كانت بريطانيا هي القوة الأوروبية المؤهلة وتمتلك روحاً جامحة، ورغبة في أن تقصي كل منافس لها من الهند والسواحل العربية، لتكون بديلاً له، حيث هزمت البرتغاليين في هرمز عام 1622م قبل أن يطردهم أهل عُمان من السواحل العربية نهائياً<sup>(19)</sup>. ثم أقصت الهولنديين من الشرق عام 1781م<sup>(20)</sup>. إضافة إلى ذلك؛ فقد أدّى زواج ملك إنجلترا شارلز الثاني بأميرة برتغالية عام 1662م إلى تقارب بين الدولتين، وأعقبه تنازل

البرتغال للإنجليز عن أجزاء واسعة من ممتلكاتهم في الهند، هذه العلاقة بعثت حالة من عدم الارتياح<sup>(21)</sup>. وأثار هذا الطموح البريطاني قلق العقل السياسي العُماني، ومنع أي تقارب معها، ومع غيرها من الأمم الأوروبية إلا بقدر ما يحقق المصالح العُمانية<sup>(22)</sup>.

هذا الحذر الذي ساد سلوك السلطة السياسية كان سبباً لتأخر ارتباط أهل عُمان بأي نوع من العلاقة مع بريطانيا، وفضلوا الارتباط بقوى أوروبية منافسة لها، ابتداءً بهولندا التي تشير سجلاتها إلى توافد عدد من المسؤولين الهولنديين إلى مسقط والرسّاق، وفي عام 1672م قدّم الإمام سلطان بن سيف بن مالك اليعربي لبعثة هولندية دعوة لزيارة نزوى<sup>(23)</sup>. وتم استقبالهم «في مسقط استقبالاً حسناً»<sup>(24)</sup>. وقد أبدى «والي مسقط مشاعر الود - للهولنديين - وكذلك وكيل مسقط الشيخ عبد الله بن سليمان وهو الممثل المالي للإمام، ونائبه حاجي خليل»<sup>(25)</sup>. وبالرغم من ضعف النفوذ الهولندي تدريجياً، وبداية ظهور علامات التفوق البريطاني على كل الأمم المتنافسة؛ إلا أن السلطة السياسية في عُمان ظلت تنأى بنفسها، فلم يسع الإمام أحمد بن سعيد (ت:1783م) إلى إقامة أي علاقة معهم، وسار ابنه السيد سعيد بن الإمام على هذا المنوال، وحاولاً تباعاً توثيق علاقاتهما بهولندا وفرنسا؛ فقد حملت رسالة الإمام أحمد بن سعيد إلى المسؤول الهولندي، عبارات الثناء والتبجيل، إذ يقول فيها: «أؤكد لكم - أي للهولنديين - أنني سوف أمنح السفن الهولندية حرية الدخول إلى موانئي، وسوف لا يكون هناك فرق بين مسقط وبتافيا...»<sup>(26)</sup>.

اعتقدت النخبة السياسيّة حينها بأن الإنجليز أخطر من هولندا وفرنسا، وظلّ هذا الاعتقاد سائداً حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، فقد رفض السيد سلطان بن الإمام (ت:1804م) وابنه سعيد إقامة أي نوع من



العلاقة مع الإنجليز؛ إلا أن هذا الموقف لم يستمر طويلاً، لتنفرد بريطانيا بالنفوذ في المحيط الهندي، إضافة إلى ضعف الحماس الفرنسي في مواجهته<sup>(27)</sup>. كل هذه العوامل أدت ببريطانيا إلى أن تدفع بثقلها، وتضرب أيّ تقارب بين عُمان والدول الأخرى<sup>(28)</sup>، وضيقت الخناق على التجارة العُمانية البحريّة؛ فأدرك السيد سلطان بن الإمام أحمد أن ثمن البقاء على العلاقة مع فرنسا يعني فقدان المصالح التجارية في الهند، فقطع العلاقة بها اضطراراً، ووقع اتفاقية مع غريمته بريطانيا عام 1798م<sup>(29)</sup>. تمثل هذه الاتفاقية نقطة فارقة في تاريخ علاقة عُمان بالشعوب الأوروبيّة، وبداية لحقبة جديدة من العلاقات تركت أثراً عميقاً في حركة المجتمع العُماني؛ حتى بات من الصعوبة كتابة تاريخ عُمان خلال القرن التاسع وجزء كبير من القرن العشرين بمعزل عن التأثير البريطاني. وأعقبت الاتفاقية أنفة الذكر أكثر من ثلاثين اتفاقية حتى عام 1950م<sup>(30)</sup>. وقبل قرن ونصف من هذا التاريخ تأسست وكالة في مسقط عرفت «بالوكالة السياسيّة البريطانيّة» توالى على إدارتها حوالي سبعون وكيلاً سياسياً. وسعت بريطانيا حتى إلى تأسيس وجود ثقافيٍّ لها؛ فقد ظهرت وكالة تبشيرية في مسقط وتبعتها مدرسة ومستشفى. ودّمّ النفوذ البريطاني الاقتصاد البحري العُماني من خلال إدخال السفن البخارية<sup>(31)</sup>. بل إنّ الوكيل السياسي كان يتدخّل في كل شاردة وواردة<sup>(32)</sup>. وأصبح الوجه الأوروبيّ عمومًا من الوجوه المألوفة، إما رحالة أو موظفين أو جنودًا وأطباء، وعلماء، ومبشرين<sup>(33)</sup>، وليس هذا فحسب بل حتى السفن التي نقلت الرحالة العُمانيين إلى الغرب سفن وبواخر أوروبية<sup>(34)</sup>.

## الرحلة إلى أوروبا

تزايد انفتاح أهل عُمان على الفضاء الأوروبي منذ القرن التاسع عشر الميلادي، وتسارعت وتيرة التواصل والاحتكاك؛ فإن كانت المعرفة عن أوروبا تشكّلت في البداية عبر رؤية مجموعة من الموظفين والرحالة والتجار والمبشرين؛ فقد أضافت الرحلة العُمانية أبعادًا أخرى عن أوروبا، وأحدثت شكلاً جديداً من التفاعل، برؤية العُماني لهامبورج، ولشبونة، ولندن وباريس. وهذا معنى ما صرحت به السيدة سالمة بنت سعيد من وسط ألمانيا، تقول: «فقد حكمت على أوروبا وقتاً طويلاً من خلال المظاهر الخارجية»<sup>(35)</sup>.

بدأت الرحلات العُمانية تتوافد على أوروبا بدءاً برحلات علي بن ناصر البوسعيدي عام 1838م و1842م و1844م كمبعوث للسيد سعيد بن سلطان (ت: 1856م) على متن السفينة سلطنة<sup>(36)</sup>. وهذه الرحلات الثلاث لم تخلّف نصّاً ثقافياً يُمكن أن يترك أثراً، إنما أشير إليها لِمأما بين جنبات النصوص التاريخية<sup>(37)</sup>. ثم تلاها انتقال السيّد سالمة بنت سعيد بن سلطان للعيش في أوروبا، فقد غادرت زنجبار عام 1867م، وعاشت في ألمانيا وتنقلت بين مدن أوروبية عديدة، ونشرت مذكراتها في عام 1886م. ولم يكن في بال السيدة سالمة وهي تكتب مذكراتها نقل ملامح الصورة الأوروبية للقارئ العربي عامة والعُماني خاصة، فكانت الغاية كما تقول: «مرت تسع سنوات منذ أن سجلت هذه الأفكار، كتبت شيئاً من حياتي لأطفالي الذين لم يعرفوا عن أصولي أكثر من أنني عربية، وأني أنحدر من زنجبار... وهكذا فإنني لم أكتب مذكراتي للنشر؛ وإنما لأطفالي الذين أردت أن أترك لهم كوصية حبّاً أمومياً صادقاً... فعسى أن ينشر كتابي هذا ويطوف في الغربية، ويقروّه أصدقاء كثيرون»<sup>(38)</sup>. إذن لم تكن

الغاية من تأليف هذه المذكرات تعريف الثقافة العربيّة بأوروبا، بقدر ما كانت نقلاً لصورة ثقافتها إلى أولئك الناس الذين صارت تعيش بينهم، كما تقول: «فليس هدفي هو أن أضع كتاباً علمياً، وإنما أن أحاول تمكين القارئ الأوروبي من فهم رؤى الشرق المهمّة وعاداته فهمًا صحيحًا»<sup>(39)</sup>. لذا كتبت المذكرات باللغة الألمانية، ثم ترجمت إلى الإنجليزية مرّتين الأولى عام 1888م، والثانية عام 1905م<sup>(40)</sup>. بينما لم تعرف الثقافة العربية هذا النص إلا بعد ظهور أول ترجمة في العقد التاسع من القرن العشرين. ومع ذلك، فالسيدة سالمة نشأت وترعرعت بين أحضان الثقافة العربية، ووضعتها كميّار للنظر للآخر الذي عاشت بينه بقية حياتها<sup>(41)</sup>، وقد عبّرت صراحة عن عدم انسلاخها من هويتها العربية، حين قالت: «إنني مقتنعة أن المرء سيعتبرني متحيزة لأنني شرقية الأصل»<sup>(42)</sup>. ولهذا السبب يمثل نصّها بذرة من بذور الصورة الأوروبية في ذهن العُماني. ولعل أهمّ رحلتين عُمانيتين إلى أوروبا بعد السيدة سالمة: رحلة السلطان برغش بن سعيد (ت: 1888م)<sup>(43)</sup>. ورحلة السيد خليفة بن حارب (ت: 1960م)<sup>(44)</sup>. تكمن أهمية هاتين الرحلتين في النصين اللذين تركتهما، ومن خلالهما عبرت صور من الثقافة الأوروبية إلى الثقافة العُمانية. فقد وصل السيد برغش أوروبا في عام 1875م، وطاف مدناً أوروبيّة، بدءاً بمدينة مسينا الإيطالية، ولشبونة، ولندن وباريس، يرافقه حوالي (19) شخصاً، غالبيتهم من عرب عُمان<sup>(45)</sup>. ودوّن زاهر بن سعيد البحري تفاصيل تلك الرحلة، ونقل ما رآه من مشاهد في كتاب حمل عنوان «تنزيه الأبصار والأفكار في رحلة سلطان زنجبار».

شهدت هذه الرحلة أول لقاء عُماني برتغالي ذكر في المصادر التاريخية منذ أن خرجوا من عُمان، وهذه المرة في لشبونة معقل البرتغال، وقد شاب هذا اللقاء قلقُ برتغاليٍّ؛ إذ تم فحص السلطان برغش وسئل عن حجم العتاد العسكري الذي تحمله رحلته «وأتى نفران من حراس المدينة وسألوا القبطان عما عنده من البارود. فقال عندنا شيء يكفي لإطلاق مدفعين فقط. قالوا لا تسمح شريعة الملكة أن يدخل مركبٌ إلى مرسى بلادها وهو حاملٌ شيئاً من البارود، ونحن نحفظه عندنا إلى وقت رحيلكم. فقال القبطان حباً وكرامة. ثم أمر البحارة أن يسلموا حراس البلد ما فضل عندهم من البارود ففعلوا»<sup>(46)</sup>. ويبدو من هذا القلق أن الذاكرة البرتغالية ما تزال تحتفظ بشيء من المرارة التي ذاقوها على يد أهل عُمان. أما الرحلة الثانية فقد وصلت عام 1937م، وقام بها السيد خليفة بن حارب، برفقة الشيخ سعيد بن علي المغيري، وهو من دون مشاهد الرحلة<sup>(47)</sup>. وطافت هذه الرحلة كغيرها المدن الأوروبية. وبالرغم من الطابع السياسي لهاتين الرحلتين؛ إلا أن الغاية منهما تعدت ذلك، وصارتا وسيلة من وسائل الاطلاع وغايتهما «إفادة أبناء جنسهم عن أحوال الأمم التي لم تكن على نحو مألوفاتهم وبذلك يتحققون معنى سعة أرض الله وكثرة جنود ربك واختلاف ألوان الناس وألسنتهم ويخلدونها في بطون الأوراق لإفادة جميع الآفاق. أما الملوك والسلاطين ففيهم من سافر طمعاً في اكتشاف بلاد الله الواسعة الفلا، الكثيرة الكلاً، والنظر إلى ما فيها من الخيرات وأسباب التمدن والحضارة والمعارف والصنائع إلى غير ذلك»<sup>(48)</sup>.

إضافة إلى الرحلات التي قام بها حكام زنجبار؛ هنالك رحلات أيضاً خرجت من عُمان، منها رحلة السلطان تيمور بن فيصل (ت: 1965م) إلى لندن عام 1928م. ثم في عام 1938م زار ابنه السلطان سعيد بن

تيمور(ت:1972م) كلا من إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا<sup>(49)</sup>. ولم يتمكن الباحث حتى الآن من الاطلاع على أي نص عُماني كتب عن هذه الرحلات، ولا من أحد مرافقيه، عدا بعض المراسلات التي كتبها السيد سعيد بن تيمور قبيل مغادرته، يقول في إحدى رسائله: «القصداً أولاً أن نزور أوروبا (أوروبا) وبعد أميركا. ولكن بما أننا الآن صممنا العزم بزيارة والدنا في الشرق الأقصى وقرب المسافة من هناك إلى أميركا فسيكون وصولنا إلى إنجلترا من تلك الطرق... فعليه سيكون وصولنا إلى لندن موجب التخمين في أواسط شهر مارس سنة 1938م ففي ذلك الوقت سنكون مسرورين بمقابلة الملك البريطاني، والتعرف بأكابر رجال حضرة حكومته، والإقامة هنا لمدة وجيزة على موجب ما تشير به حضرة حكومة جلالة الملك إذا تفضلت من إحساناتها بذلك. ثم الرجوع إلى مملكتنا بعد المرور على فرنسا وزيارة رئيسها، ثم بعض من بلدان أوروبا (أوروبا) إذا سمحت لنا الفرص... والقصداً من هذه الزيارة هو لأجل توطيد عرى الصداقة والوداد وما يتعلق بمصالح حكومتنا لتعلموا»<sup>(50)</sup>.

وهذا الشكل الجديد من التواصل والتفاعل، لم تعد معه أوروبا تلك الصورة المتخيّلة أو تلك الصورة التي رسمتها السفن الأوروبية القادمة إلى السواحل العربية، إنما تسللت صورة أكثر واقعية سنرى أثرها بين ثنايا هذه الدراسة<sup>(51)</sup>.

## هوامش

1. خميس بن راشد العبري(ت:1271هـ/1854) من بلدة الحمراء بداخلية عمان. له الكثير من الآراء والمواقف في الأحداث السياسية التي عاصرها، ضمنها كتابه المسمى "شفاء القلوب من داء الكروب" وله مراسلات علمية مع علماء عصره. للمزيد انظر: السعدي، فهد بن علي، معجم الفقهاء والمتكلمين الإباضية، قسم المشرق (مسقط: مكتبة الجيل الواعد، 1428هـ/2007م)، ج.1، ص: 201.
2. العبري، خميس بن راشد، شفاء القلوب من داء الكروب، (مسقط: مكتب المستشار الخاص لجلالة السلطان للشؤون الدينية والتاريخية، 1431هـ/2010م) ج.2، ص: 17.
3. إنرستغيو رافنشتاين، كتاب الروتيرو (أخبار رحلة ألفارو فيليو)، نشرت الدراسة ضمن كتاب الخليج العربي من خلال نصوص الرحالين والمؤرخين البرتغاليين، ترجمة، أحمد إبيش، (أبو ظبي: دائرة الثقافة والسياحة، 2019م)، ص: 75.
4. سلوت، ب. ج. عرب الخليج في ضوء مصادر شركة الهند الشرقية الهولندية 1602-1784، ترجمة عابدة خوري، (أبو ظبي: الجمع الثقافي، 1993م)، ص: 77.
5. للمزيد حول أثر الكشوفات الجغرافية على الشرق، انظر: هول، رتشارد، إمبراطوريات الرياح الموسمية، (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 1999م)، ص: 447-669؛ رافنشتاين، كتاب الروتيرو (أخبار رحلة ألفارو فيليو)، ص: 96-75.
6. إبيش، الخليج العربي، ج.3، ص: 47.
7. رسالة من مجلس مدينة غوا بتاريخ 1524م، للمزيد انظر: إبيش، الخليج العربي، ج.3، ص: 324.
8. نفسه، ج.3، ص: 362.
9. نفسه، ج.3، ص: 231.
10. بذل الباحث جهدا للبحث عن إشارات للأوروبيين في نصوص الثقافة العمانية التي تعود إلى ما قبل القرن الخامس عشر الميلادي، إلا أنه لم يتمكن من العثور على شيء ذا صلة. لحد كتابة هذه الدراسة.
11. للمزيد حول شكل السفن البرتغالية في القرنين الخامس والسادس عشر، انظر: إبيش، الخليج، ج.1، ص: 120، 121. وقد ميز العرب هذه السفن عن تسمياتهم، باسم الغريان، وبالرغم من أن اسم الغرب مستخدم عند أهل البحر، إلا أن أهل عمان لم يستخدموه إلا لوصف السفن البرتغالية. انظر: ابن قيصر، عبد الله بن خلفان، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، تحقيق عبد الجيد حسيب القيسي، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 2017م)، ص: 47.
12. سجلات ألفونسو دلبوكيرك، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (أبو ظبي: الجمع الثقافي، 2000م)، ج.1، ص: 213.
13. سجلات دلبوكيرك، ج.2، ص: 217-155.
14. Portugal in the sea of Oman religion and politics research on documents, edited by Abdulrahman al-salimi and Michael Jansen, Georg olms verlaghildesheim-Zurich-new york:2018, vol 6. page 119
15. السعدي، ناصر بن سيف، نشأة الدولة في عمان عام 1034هـ/1624م: دراسة في التحولات السياسية والاجتماعية، المنشورة ضمن أعمال مؤتمر: العرب: من مرج دابق إلى سايبكس - بيكو

- 1516-1916) حَوَلات بناء السلطة والمجتمع من الكيانات والإمارات السلطانية إلى الكيانات الوطنية، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019م)، الصفحات: 329-354.
16. انظر الجزء الثاني من هذه الدراسة.
17. إيبش، الخليج العربي، ج.3، ص: 199-202.
18. سلوت، عرب الخليج، ص: 199.
19. اهتم الأوروبيون بالإرث المعرفي الذي تركه البرتغاليون عن الشرق، من رحلات وسجلات، فقد قام اللورد البريطاني هنري إدوار جون ستانلي (1903-1827م) بدراسة حول رحلة فاسكوا دي جاما، وترجم موريش البريطاني سجلات دلبوكيرك، وترجم الفرنسي فردينان دن، بعض الأعمال البرتغالية المتصلة بالشرق عام 1855، للمزيد، حول هذه النصوص أنظر: إيبش، الخليج العربي، أربعة أجزاء.
20. للمزيد حول التنافس الهولندي الإنجليزي، انظر: سلوت، عرب الخليج، ص: 80، 82، 84.
21. نفسه، ص: 186، 209.
22. حسين، علي، التنافس البريطاني- الفرنسي في عمان 1749 - 1798م، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، عدد 2، ملحق 1، مجلد 47، ص: 2680269.
23. سلوت، عرب الخليج، ص: 187.
24. نفسه، ص: 149، 150، 173.
25. نفسه، ص: 187.
26. نفسه، ص: 249.
27. الشعيلي، محمد بن حمد، التنافس البريطاني الفرنسي في عمان 1888-1913م: دراسة سياسية، (مسقط: النادي الثقافي، 2014م)، ص: 70.
28. سلوت، عرب الخليج، ص: 269، 358.
29. للمزيد حول الاتفاقيات التي وقعها حكام وسلطين عمان مع بريطانيا حتى عام 1348هـ 1930م، انظر: بواجيسون، الإمارات العربية في الوثائق البريطانية، ص: 213-163؛ بدول، د. آر، الاتفاقيات الدولية مع سلطنة عمان، حصاد ندوة الدراسات العمانية، (مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، 1400هـ/1980م)، ج.8، ص: 199-237.
30. بواجيسون، الإمارات العربية في الوثائق البريطانية، ص: 213-163؛ بدول، د. آر، الاتفاقيات الدولية مع سلطنة عمان، ج.8، ص: 199-237.
31. للمزيد حول أثر النفوذ البريطاني على حركة المجتمع العماني منذ عام 1798م انظر: هاليداي، فريد، الصراع السياسي في شبه الجزيرة العربية، ترجمة محمد الرميحي، (بيروت: دار الساقي، 2008م)، ص: 328-364.
32. Owtram, Francis Carey, Oman and west: state formation in Oman since 1920, A Thesis submitted to the London School of Economics and Political Science in Candidacy for the degree of Doctor of philosophy, University of London, 1999, page: 53-84
33. Marshall, Brian: European travelers in Oman and southeast Arabia 1792-1950: a biobibliographical study. - in: New Arabian Studies, Vol. 2. - Exeter: University of Exeter

- Press, 1994.
34. سعيد زاهر. تنزيه الأبصار والأفكار في رحلة سلطان زُجبار. رتبته وصوبه لويس صابوغي. (مسقط: وزارة التراث والثقافة. بدون تاريخ). ص: 9.
35. اميلي. رويته. مذكرات أميرة عربية. ترجمة سائلة صالح. (بيروت: دار الجمل 2006م). ص: 178.
36. أيلتس. هرمان فريدريك. سلطنة في نيويورك أولى رحلات الأسطول العماني لأمريكا عام 1840م. ترجمة محمد أمين عبد الله. (مسقط: وزارة التراث والثقافة. 2015م). ص: 85.
37. مجهول. مخنارات من وثائق حكومة بومباي. ترجمة. عبد العزيز عبد الغني إبراهيم. (الدوحة: مركز حسن بن محمد للدراسات التاريخية 2017م). ص: 199.
38. إميلي. مذكرات أميرة عربية. ص: 10.
39. نفسه. ص: 177.
40. نفسه. ص: 6.
41. نفسه. ص: 341.
42. اميلي. مذكرات أميرة عربية. ص: 177.
43. السيد برغش بن سعيد بن سلطان. تولى حكم زُجبار عام 1870م. وهو ثاني السلاطين بعد انفصالها عن عمان. الفارسي. عبد الله بن صالح. البوسعيديون حكام زُجبار. (مسقط: وزارة التراث والثقافة. بدون تاريخ). ص: 22-23.
44. السيد خليفة بن حارب البوسعيدي. تاسع سلاطين زُجبار.
45. للمزيد انظر: سعيد. تنزيه الأبصار والأفكار. صفحات متعددة.
46. سعيد. تنزيه الأبصار والأفكار. ص: 30.
47. المغيري. سعيد بن علي. رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى أوروبا. (مسقط: وزارة التراث والثقافة 1985م).
48. سعيد. تنزيه الأبصار والأفكار. ص: 8.
49. الحارثي. محمد بن عبد الله. موسوعة عمان الوثائق السرية. (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 2006م). ج2. ص: 580-582.
50. الحارثي. موسوعة الوثائق السرية. ج2. ص: 582.
51. سعيد. تنزيه الأبصار والأفكار. ص: 100.



## ثانياً: الإفرنج والنصارى: أيّ معنى؟

## ثانياً: الإفرنج والنصارى: أي معنى؟

إن دراسة تطور المفاهيم والتسميات ورصد مراحلها الزمنية، يُسهم في فهم الذهنية الثقافية والاجتماعية للجماعات البشرية عموماً، والوقوف على مظاهر تفاعلها مع الدائرة التي تنتمي إليها أولاً ثم فهم نظرتها للآخر؛ لذا فإن إلقاء نظرة على تطور المفردات السياسيّة والاجتماعية والدينية التي عرّفت بها الثقافة العُمانية الأروبيّ، وفهم دلالاتها وسياقاتها، من الأهمية بمكان، بقصد تلمّس الدلالات المضمرة التي تتحكم في إنتاجها. إلا أن هذه المسألة تحتاج إلى جهدٍ مضمّن يروم تتبع المفاهيم الجغرافية والاجتماعية والدينية من بين جنبات التراث العُماني، قد لا يتسع المقام لكل هذا الجهد، في هذه العجالة، إنما الغاية إثارة الانتباه، وتقديم مدخلٍ عن مفاهيم مثل: الأوروبيون والإفرنج والنصارى.

### الأوروبيون

لم يتداول مصطلح أوروبا أو الأوروبيون على اللسان العُماني حتى عهد متأخر من القرن التاسع عشر الميلادي، وبدأ بالظهور بشكل خجول إبان الرحلات العُمانية إلى أوروبا منذ عام 1875م<sup>(1)</sup>، وفي بعض رسائل الأئمة والسلاطين إلى المسؤولين الأوروبيين<sup>(2)</sup>. وليس هذا فحسب، بل حتى إن تسميات من مثل البرتغاليين والإنجليز والفرنسيين لم تحضر إلا نادراً، إلى درجة يصعب الوقوف عليها بسهولة ويسر، باستثناء بعض النصوص السياسيّة التي يغلب عليها الطابع الرسمي، بينما يندر وجودها في المدونات التاريخيّة والفقهية والأدبية. فمثلاً من النادر أن يرد اسم

البرتغال في نصوص القرنين السابع والثامن الميلاديين، عدا مرة واحدة - حسب علم الباحث - جاء في رسالة من الإمام بلعرب بن سلطان (ت: 1692م) إلى السلطان العثماني سليمان الثاني، ومما جاء فيها: «فإن الكلمة - بحمد الله - واحدة وجمرة الشقاق بيننا وبينه خامدة، وإن لم يجر بيننا إلا جميل الفعال وحسن المقال... في صلاحنا وصلاحه حرب سلطان برتغال، ورفع صوت المذلة والأذى»<sup>(3)</sup>. وإضافة إلى هذه الرسالة، فهناك رسالة من القائدين ناصر بن عبد الله بن أحمد النحاس ورحمة بن مطر الهولي، وصلت إلينا ترجمة من اللغة الهولندية، وترجع إلى القرن الثامن عشر الميلادي، وحسبما يتضح من النص المترجم أن القائدين فرقا بين الطوائف الأوروبية، كما جاء نصاً: «إذا كان البحارة من الهولنديين أو الإنكليز أو البرتغاليين أو الفرنسيين أو الدانماركيين. فقد أبلغني الرجال الموجودون على الجزيرة بالأمر وأرسلوهم إليّ. فور علمي بأنهم هولنديون، أطلقت سراحهم وأرسلتهم إليك وهذا واجبي. لقد أمرني الإمام أن أحترم الشركة الهولندية الموقرة في جميع المسائل وعليّ الطاعة التامة»<sup>(4)</sup>.

وهكذا الحال بالنسبة لنصوص القرن التاسع عشر الميلادي، يقتصر حضور تلك التسميات على مراسلات السلاطين مع المسؤولين الأوروبيين أو مع الأعيان، وهي أكثر من أن تُحصى، منها على سبيل المثال رسالة من السيد سعيد بن سلطان (ت: 1856م) إلى أعيان قبيلة العبريين، قال فيها: «وقد عزمنا على المسير لحرب البحرين ومعنا الإنجليز - الإنجليز - والعجم في صحبتنا»<sup>(5)</sup>. وأما بالنسبة للأشكال الأخرى من النصوص، فإن وردت فحضورها عابر، باستثناء مدونة ابن رزيق (ت: 1874م) التاريخية المسماة «الفتح المبين»، فقد استخدم مسمى الإنجليز أكثر من (40) مرة<sup>(6)</sup>. أما اسم الفرنسيين فقد استخدمه لمرة واحدة أثناء حديثه عن

البلدان التي انتشر فيها مرض الطاعون عام 1821م<sup>(7)</sup>. وفي الواقع أن ابن رزيق يبدو حريصاً على تسمية كل طائفة أوروبية باسمها، أو على الأقل التعريف بها، كما يظهر من النص الآتي: «أسرع الوثبة لحرب النصرى... وهم المسمون البرتكيس - البرتغاليين»<sup>(8)</sup>. ولعل هذا الحرص من ابن رزيق رغبة منه في التفريق بين طوائف «النصرى» الذين يتحدث عنهم. بينما اختفى هذا الحس عند الشيخ نور الدين السالمي، فهو لم يذكر الإنجليز في كامل مدونته «تحفة الأعيان» باستثناء مرة واحدة فقط<sup>(9)</sup>. يبدو أن غالب ذهن العماني لم يستسغ التسميات ذات الهويّات القطرية، قبل القرن العشرين، وزهدوا في استخدامها، عدا حالات نادرة، وحلّت بدلاً منها تسميات ذات بعد عرقيّ ودينيّ، منذ اللحظة الأولى التي عرفوا فيها أوروبا وشعوبها، وبدأت تترد تسميات مثل الإفرنج والنصرى، وأصبحت تستخدم بشكل جامع في الإشارة للأوروبيين. وهذا الفرز ليس سببه جهلاً بطبيعة اسم كل طائفة وهويتها السياسية، بقدر ما يهدف إلى التأكيد على أن هناك حدوداً عرقية وثقافية تفصله عن تلك الطوائف الأوروبية، واختزالها تحت كيان واحد يكون مقابلاً للذات العربية والإسلامية.

## الإفرنج

يستخدم العرب اسم الإفرنج للإشارة إلى الشعوب التي قَدِمَت من القارّة الأوروبية عموماً، وقد حضر في أوائل النصوص العربية التي تعود إلى القرن التاسع الميلادي، منها على سبيل المثال كتاب «البلدان» لليعقوبي، ثم تزايد استخدامه إبان الحروب الصليبية<sup>(10)</sup>. ويعود أصل اسم الإفرنج إلى إحدى القبائل التي شكلت تحالف القبائل الجرمانية «الذين كانوا قد استقرّوا في جزءٍ من الإمبراطورية الرومانية وهو ما يعرف الآن

باسم بلجيكا... وكانوا أول من نزل الأراضي المنخفضة وعلى امتداد نهر الراين»<sup>(11)</sup>. وفي عام 751م ظهر الإفرنج بصفتهم مملكة دامت ثلاثة قرون، وشملت أجزاء واسعة من أوروبا، وفرض شارلمان -أحد ملوكها- الكاثوليكية التي يؤمن بها، وأصبحت القوة المهيمنة على كامل أوروبا<sup>(12)</sup>. وعاصرت هذه المملكة الوجود العربي الإسلامي في الأندلس، فاستمدت الذاكرة العربية من هذا الكيان السياسي، مفردة الإفرنج، وعلقت في الذهن العربي، وأدخل تحت إطارها البرتغالي والإنجليزي والهولندي والإيطالي. يواجه المتتبع لمراحل حضور اسم الإفرنج في المدونات التراثية العمانية فراغات زمنية طويلة، ويكاد لا يوجد أثر له قبل القرن الخامس عشر الميلادي، ومع ذلك لا يعني هذا أن أهل عُمان لم يكونوا على معرفة به، أو لم يتردد بين ألسنتهم، إذ تؤكد بعض الإشارات القليلة أن أهل عُمان عرفوا «بلاد الإفرنج» أو على الأقل سمعوا عنها، فالملاح أحمد بن ماجد أدرك حقبتين من حقب تاريخ المحيط الهندي، الحقبة التي سبقت وصول البرتغاليين وما بعدها بقليل، وتدلّ بعض نصوصه التي كتبها في الحقبة الأولى أنه على دراية ببلاد الإفرنج، وأشار إليها في سياق حديثه عن المسالك والطرق والجزر والبلدان، وهذه الإشارة دليل على أن الاسم متداول بين أهل عُمان، فقط تجاهلته نصوص التراث. أما إشارات الأخرى التي تتعلق بالوجود البرتغالي، فنصوص ابن ماجد من أوائل النصوص العمانية ذكراً للبرتغاليين باسم الإفرنج. ثم اختفى ذكر البرتغاليين من النصوص العمانية حتى عام 1624م، باستثناء إشارة خجولة وعابرة في وصية جاءت بعد سنين طوال من الذكر الأول، أشارت إلى رجل يسمى بفرطيس الإفرنجي<sup>(13)</sup>.

ولا نريد أن نستبق الأمر هنا، ونضع افتراضات لهذا الغياب؛ فهذا حديث سيأتي في موضعه. والأهم الآن تتبع المفردات التي اتفق عليها الذهن العماني. غير أن تجاهل المدونات التراثية للبرتغاليين إبان القرن السادس الميلادي، نجمت عنه صعوبة التكهن بالاسم الغالب على اللسان العماني. وإذا ما تجاوزنا هذا الغموض، وقسنا الأمر بنصوص عربية أدركت نزول البرتغاليين سواحل شبه الجزيرة العربية، تحديداً النصوص اليمينية، فيمكن القول: إن الإفرنج هو الاسم الغالب أثناء الحديث عن دلبوكيرك وجنوده؛ إذ إن مؤلف كتاب «الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد» كرّر الإشارة إلى البرتغاليين عندما نزلوا السواحل اليمينية تسع مرات ليس بينها مفردة غير الإفرنج<sup>(14)</sup>. وأما المدونة التاريخية اليمينية المعروفة بـ«تاريخ ابن شنبل»، فقد ورد فيها ذكر للبرتغاليين منذ نزولهم الهند، ثم سواحل اليمن وعمان، هي الأخرى الاسم الذي تردد بين ثناياها هو اسم الإفرنج، وإن أضافت وصفاً دينياً، على شاكلة «الإفرنج الكفرة»<sup>(15)</sup>. واستناداً إلى هذا القياس، فإن النصوص اليمينية قد يصح أن تمثل تعبيراً عن المزاج العربي عموماً، وأن أهل عمان استخدموا اسم الإفرنج كحال جيرانهم اليمنيين. وما يدعم هذا الافتراض ويؤكد الانفعال الذي أصاب البرتغاليين حين وجدوا أن العرب يعرفونهم باسم الإفرنج، وهذا ما وثّقه الرحالة البرتغالي دوارتشة عام 1515م، بقوله: إن البرتغاليين «يسميهم المسلمون الإفرنج»<sup>(16)</sup>. هذه الدلائل تعطي انطبعا أن اسم الإفرنج نائع الصيت حتى بين أهل عمان، وإن لم يظهر في نصوصهم، سوى في نصين يتيمين، أشرنا إليهما سابقاً. ولكن بمجرد أن فاقت الأقلام العمانية من سباتها، وبعد أن أصبحنا نجد حضوراً لذلك النازل الغريب، عاد اسم الإفرنج يتردد على اللسان.

ارتبطت عودة الاهتمام بالبرتغاليين سواء باسم الإفرنج أو غيره من التسميات، بالتحوّلات السياسية التي شهدتها عُمان عام 1624م، إذ شهد هذا التاريخ تنصيب الإمام ناصر بن مرشد اليعربي (ت: 1649م)، وتلاه صدامٌ عُمانِيٌّ برتغاليٌّ، سال على إثره مداد الأقلام، وأثار الانتباه، وتحسن الحضورُ البرتغالي في المدونات التاريخية أو الفقهية أو الأدبية. وما يهمننا من هذه المدونات الآن هو حجم الإشارة للأوروبيين عامة باسم الإفرنج، وموقعه بين التسميات الأخرى ذات البعد الديني والعربي والسياسي؛ ففي كتاب «كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة» ورد ذكر البرتغاليين (18) مرة، واحدة منها باسم الإفرنج. أما في كتاب «أخبار وقصص جرت في عُمان» فقد بلغ عدد المرات (15) مرة، أيضاً واحدة منها باسم الإفرنج، أما في نصٍّ أقدم من هذين الكتابين، وهو «سيرة الإمام ناصر بن مرشد» فلم يستخدم مؤلف هذه السيرة الاسم، ولا مرة، وحلّت بدلاً منه تسميات ذات بعد ديني<sup>(17)</sup>.

وبالرغم من هذا الضمور الذي أصاب اسم الإفرنج في المدونات التاريخية بعد عام 1624م؛ ولكنّه ظهر في نصوص أخرى، كالنصوص الفقهية والأدبية التي تعود إلى عهد اليعاربة، ثم بدأ في التلاشي تدريجياً، وأصبح حضوره باهتاً بعد القرن الثامن عشر الميلادي، ولم يعد له ذكرٌ إلا نادراً، ويقصد به هذه المرة الإنجليز أو الفرنسيون، وغالب الشعوب الأوروبية، وحدث ذلك في التقييدات ونصوص الرحلات وتحديداً كتاب «تنزيه الأبصار والأفكار في رحلة سلطان زنجبار» واستخدم مدوّن الرحلة زاهر بن سعيد البحري، اسم الإفرنج، أثناء حديثه عن نابليون، إذ وصفه بأنه «قهر ملوك الإفرنج»<sup>(18)</sup>. ومرة ذكره سعيد بن علي المغيري متخيلاً نزول «صاحب العظمة - السلطان خليفة بن حارب - بلباس الإفرنج في هذه

المدينة باريس»<sup>(19)</sup>. أما في المدونات التاريخية، وقصائد الشعراء، وكتب النوازل الفقهية، فلا يوجد له ذكر، فقد حلت بدلاً منه تسميات أخرى. وهذا الضمور الذي أصاب اسم الإفرنج، يدلّ على تحوّل طراً على رؤية الذهن العماني للمحركات والدوافع الأوروبية.

### النصارى

يعود اسم النصارى نسبة إلى بلدة في فلسطين، وتسمى «ناصره ونصورية قرية بالشام والنصارى منسوبون إليها»، هذا قول أهل اللغة<sup>(20)</sup>. واصطلاحاً: «هي الديانة المنسوبة إلى المسيح عليه السلام» ويطلق عليهم في القرآن الكريم النصارى، وأهل الكتاب، وأهل الإنجيل، وهم يسمون أنفسهم بالمسيحيين نسبة إلى المسيح عليه السلام، ويسمون ديانتهم المسيحية<sup>(21)</sup>. وتعرف الذاكرة العمانية النصارى، ليس بوصفها ديانة فحسب؛ بل بما يشي بمعرفتها بهم عن قرب؛ إذ تحمل نصوص التراث العماني إشارات إلى وجود علاقة توتر مع نصارى سقطرى، إضافة إلى حضور إشارات نادرة تُحيل إلى وجودهم في عُمان في القرن الثالث الهجري\التاسع الميلادي<sup>(22)</sup>. ليس هذا المعنى الذي نبحت فيه، إنما غاية هذه الدراسة، ذلك المعنى الذي يشار به إلى تلك الأمم التي عرفها أهل عُمان، منذ لحظة وصول فاسكوا دي جاما أواخر القرن الخامس عشر الميلادي. وقد رأينا أن الإفرنج هو الذي الاسم استخدمه العرب عموماً في الإشارة إلى البرتغاليين؛ إلا أنه لم يصمد طويلاً، وبدأ ينافس اسم النصارى أو تسميات ذات بعد ديني، كما يظهر من نصوص الحقبة التي تلت عام 1624م. وعودة إلى المدونات التاريخية الثلاث التي أشرنا إليها آنفاً، وهي كتاب «سيرة الإمام ناصر بن مرشد» وكتاب «كشف الغمة الجامع



لأخبار الأمة» و«قصص وأخبار جرت في عُمان»، نجد أن الإشارة إلى الأوروبيين عموماً والبرتغاليين خصوصاً بلغت (45) مرة، منها (37) باسم النصراري، و(8) مرات باسم المشركين. وهذا الاسم الديني حضر حتى في نصوص المراسلات السياسيّة، ويتضح في رسالة الإمام سلطان بن سيف اليعربي(ت:1680م) إلى إمام اليمن يُشير فيها إلى البرتغاليين، بقوله: «اتضح لنا من واضح نطقه وبيانه أنكم علينا عاتبون منا واجدون لأجل قطع خدامنا في العام الماضي مراكب رقاب المشركين على بابكم...وأعدنا الهذام والبواتر لتدمير عبدة الأوثان، وأعداء الملك الديان... وحاشا لمثلك أن يغضب لقتال عبدة الأصنام وأعداء الله والإسلام»<sup>(23)</sup>. هذا التحوّل نحو اسم ذي بُعد ديني، قد يقول فيه قائل إنه أمر طبيعي، فقد درجت الثقافة الإسلامية كغيرها من الثقافات الدينية على تصنيف الأمم وفق أسس دينيّة، وهذا قول معتبر بلا شك؛ غير أن اللافت للنظر، هو الانتقال الذي حدث من اسم الإفرنج إلى حلول اسم النصراري. هل لأن أهل سواحل الجزيرة العربية بما فيهم أهل عُمان، لم يدركوا من البداية الدوافع الدينية التي تُحرّك سلوك البرتغاليين؟ هذا احتمال، والاحتمال الآخر أن يكون الأمر عائداً إلى التحرّز من نسبة الوحشيّة التي اتسم بها السلوك البرتغالي إلى الديانة المسيحية، فالمسلمون ليس لديهم إشكال مع هذه الديانة، باعتبارهم أهل كتاب، إضافة إلى ما تحويه الذاكرة الإسلامية من تعايش بين الديانتين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، أن أوروبا لم تكن وحدها في الذهنيّة العربيّة تمثل المسيحية، والنصراري، ليس الإفرنج وحدهم فهناك نصراري عرب وأفارقة وهناك هندو، بل إن هنالك إشارات لوجود نصراري في عُمان في القرون السابقة للإسلام وما بعده بقليل<sup>(24)</sup>. إذن كل الاحتمالات واردة، وإن كنا نميل إلى الاحتمال الأول، ويبدو أن إدراك

العقل العُماني للدوافع الدينية احتاج إلى هذا المدى الزمني، لا سيّما بعد أن برزت العاطفة الدينيّة البرتغالية عياناً، فقد تأسّست في مسقط وقريات وصحار والمناطق الشمالية من عُمان كنائس مسيحيّة، حتى بلغ عدد الذي أُجبروا على اعتناق الدين المسيحي بين سنتي 1626-1628م أكثر من (800) فردٍ غالبيتهم من المسلمين<sup>(25)</sup>. وحتى بعد نهاية حقبة البرتغاليين لم يُخفِ الأوروبيون أهدافهم الدينيّة، وإن خبا وهجها قليلاً، والذي تغير فقط هو التقنيّات والوسائل التي يُراد من خلالها التبشير بالديانة المسيحية، باستخدام وسائل ناعمة، كالطب والتعليم والاتفاقيات<sup>(26)</sup>. هذه التقنية الجديدة استطاعت أن تخفي شيئاً من الدوافع الدينية، وتزيل من الذهنية العُمانية بعض القلق، إلى درجة أن هنالك من يتحرز من استخدام اسم النصارى، فمثلاً نجد أن المؤرخ ابن رزيق، وقد عاصر أول اتفاقية مع بريطانيا، ومدونته التاريخية «الفتح المبين» من أوائل المدونات إشارة للإنجليز، لم يستخدم ولا مرة كلمة النصارى، أو أي اسم ذي بعد ديني يقصد به البريطانيون<sup>(27)</sup>. حتى بالنسبة للنصوص التي نقلها من مدونات تاريخيّة سابقة له، وتتعلق بالبرتغاليين، عمد فيها إلى إضافة تسميات ذات بعد سياسيٍّ إلى جانب اسم النصارى الذي هو موجود فيها أصلاً<sup>(28)</sup>. هذا العزوف من قبل ابن رزيق، قد يكون سببه تكوينه الثقافي، فهو مؤرخ وشاعر، ولم يكن يملك مزاج الفقيه، ثم إن الرجل قريب من السلطة التي تربطها علاقة شبه وديّة مع الإنجليز. وأياً كان السبب، فإن ابن رزيق لا يمثل الصّورة الكاملة للذهن العُماني، فهناك نصوص معاصرة له، استخدمت اسم النصارى إذا ما تحدثت عن الإنجليز، فالأسئلة التي أرسلها الرّحالة البريطاني ريموند ويلستد إلى الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي (ت: 1871م) ثم حولها إلى الشيخ ناصر بن جاعد الخروصي (ت: 1847م)، عرفت

«بمسائل النصارى»<sup>(29)</sup>، وعلق الشيخ خميس بن راشد العبري (ت: 1854م) على هذه المسائل، قائلاً: «ولا أعلم مذهباً من مذاهب الإسلام، إلا وتطفلوا عليه، ومن ذلك سؤالهم للشيخ ناصر بن أبي نبهان»<sup>(30)</sup>. وأشار للإنجليز باسم النصارى في غير هذه النصوص أيضاً، فالشاعر أبو الصوفي، حين طلب منه أن يصف فتاة اسمها «أليس» عنون القصيدة بالمقدمة الآتية «... وقد اقترح عليه حضرة ولي العهد السيد تيمور بن فيصل أن يصف له امرأة ذات شعر أصهب واسمها أليس من بنات النصارى في عاشر صفر سنة 1330هـ/1911م»<sup>(31)</sup>. وحتى الشيخ نور الدين السالمي في كتاب «تحفة الأعيان» لم يستخدم اسماً آخر غير اسم النصارى باستثناء مرة واحدة<sup>(32)</sup>. أما في النصوص الفقهية فمن النادر جداً، أن نجد الإشارة إلى الإنجليز أو غيرهم من الأمم الأوروبية، باسم غير النصارى. فقد ظل هذا المصطلح الديني هو الشائع حتى بدأ تدريجياً في الاختفاء من نصوص الثقافة العمانية، وأصبحت تأخذ مكانه تسميات سياسية، وهذا التغيير التدريجي يندرج ضمن تحولات الصورة الأوروبية في نصوص التراث العماني.

## هوامش

1. سعيد. تنزيه الأبصار والأفكار، ص: 35، 61، 62، 113.
2. الحارثي. موسوعة عمان السرية، ج2، ص: 582-580.
3. البطاشي. سيف بن حمود. إيقاظ الوستنان في شعر وترجمة الشيخ خلف بن سنان. (مسقط: بدون، 1995م). ص: 46.
4. سلوت. عرب الخليج، ص: 239.
5. رسالة من السيد سعيد بن سلطان إلى كل من زهران بن محمد وراشد بن مالك العبريين بتاريخ 1235هـ/1819م، نسخة إلكترونية منشورة في وسائل التواصل الاجتماعي. لدى الباحث نسخة منها.
6. ابن رزيق. حميد بن محمد. الفتح المبين في سيرة السادة البوسعديين. حقيق. عبد المنعم عامر ومحمد مرسي عبد الله. (مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، 1997م). ص: 455، 456، 457، 468، 469، 470، 471، 472، 481، 482.
7. ابن رزيق. الفتح المبين، ص: 472.
8. ابن رزيق. الفتح المبين، ص: 249.
9. السالي. عبد الله بن حميد. حفة الأعيان بسيرة أهل عمان (مسقط: مكتبة الاستقامة، 1417هـ/1997م). ج2، ص: 326.
10. اليعقوبي. أحمد بن أبي يعقوب (المتوفى 284هـ). البلدان. وضع حواشيه محمد أمين ضناوي. (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002م). ص: 195؛ ابن شداد. بهاء الدين. النوادر السلطانية والحجاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين. حقيق جمال الدين الشياك. (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1994م) صفحات عديدة.
11. بينشوب. موريس. تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ترجمة علي السيد علي. (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005م) ص: 19.
12. موريس. تاريخ أوروبا. ص: 29-31.
13. البطاشي. سيف بن حمود. إخاف الأعيان في تاريخ بعض علماء أهل عمان. (مسقط: مكتبة السيد أحمد البوسعدي، بدون تاريخ). ج2، ص: 146.
14. الدبيع. عبد الرحمن بن علي. الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد. حقيق يوسف شلحد. (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1983م) ص: 345 وما بعدها.
15. شنبيل. أحمد بن عبد الله. تاريخ حضرموت المعروف بتاريخ شنبيل. حقيق عبد الله محمد الحبشي. (صنعاء: مكتبة صنعاء الأثرية، 2003م). ص: 216، 226، 227، 227، 235، 240، 250، 255.
16. دوارتشنه باروزا. وصف جزر الهند والبلدان الواقع على سواحل المحيط الهندي عام 1514م؛ إيبش. الخليج العربي، ص: 168.
17. الأركوي. سرحان بن سعيد. تاريخ عمان المقتبس من كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة. ت: عبد الحميد حبيب القيسي. (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 1407هـ/1986م). ص: 97، 100، 102، 103، 103، 104، 106، 108، 110؛ المعولي. محمد بن عامر. قصص وأخبار جرت في عمان. مسقط: وزارة التراث والثقافة). ص: 230، 237، 241، 242، 243، 247، 253، 259، 283، 241، 240.
18. سعيد. تنزيه الأبصار والأفكار، ص: 201.
19. المغيري. رحلة السلطان خليفة بن حارب، ص: 29.

20. ابن سيده، المحكم والمجيب الأعظم، دار الكتب العلمية، 2000م، ص: 300.
21. الخلف، سعود بن عبد العزيز، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، (الرياض: مكتبة أضواء السلف، 1997م)، ص: 121.
22. للمزيد حول معنى النصوص التي يحيل إليها مسمى النصارى، انظر: الكندي، محمد بن إبراهيم، المصنف، تحقيق مصطفى بن صالح باجو، (مسقط: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، 1437هـ/2016م)، ج11، ص: 130.
23. السالمي، خفة الأعيان، ج2، ص: 62.
24. الكندي، المصنف، ج11، ص: 130.
25. Portugal in the sea of Oman, vol 6, page 119.
26. للمزيد حول الوسائل التي استخدمتها الإرساليات الأوروبية انظر: الحسيني، سليمان بن سالم، الحملات التنصيرية إلى عمان والعلاقة المعاصرة بين النصرانية والإسلام، (لندن: دار الحكمة، 2006م).
27. ابن رزيق، الفتح المبين، ص: 455، 456، 457، 468، 469، 470، 471، 472، 481، 482.
28. للمقارنة انظر: ابن رزيق الفتح المبين، ص: 231، 233، 237، 238، 239، 240، الأركوي، المقتبس من كتاب كشف الغمة، ص: 97، 100، 102، 103، 104، 106، 108، 110، المعولي، قصص وأخبار جرت في عمان، ص: 230، 237، 241، 242، 243، 247، 253، 259، 241، 240.
29. الخروصي، ناصر بن جاعد، مسائل النصارى، (مسقط: مكتبة السيد محمد بن أحمد اليوسعيدي، مخطوط رقم، 186)، الورقة من 20-1: السعدي، ناصر بن سيف، العلاقة بين العلماء والسلطة في عمان 1913-1749م، أطروحة دكتوراة، غير منشورة، (مسقط: جامعة السلطان قابوس: 2020)، ص: 117.
30. أرسل البريطانيون مجموعة من الأسئلة حول المذاهب الإسلامية في عمان، والفروقات بين كل مذهب وآخر، وفي الأصل هذه الأسئلة موجهة للشيخ سعيد بن خلفان الخليلي (ت: 1287هـ/1871م) وبدوره أرسلها للشيخ ناصر بن جاعد الخروصي، للمزيد انظر الأسئلة والجوابات: العبري، شفاء القلوب، ج1، ص: 184 وما بعدها.
31. المجيزي، سعيد بن مسلم، ديوان أبي الصوفي، تحقيق حسين نصار ط3، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 1437هـ/2016م)، ص: 113.
32. السالمي، خفة الأعيان، ج2، ص: 208، 209، 249، 258، 278، 290، 296، 304، 314، 326، 327.



## ثالثا: الأوروبيون وشكل البدايات

## ثالثاً: الأوروبيون وشكل البدايات

تمتدّ هذه الحقبة من لحظة وصول فاسكوا دي جاما إلى سواحل المحيط الهندي وحتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وهي حقبة طويلة زمنياً، وتنقسم إلى مرحلتين، لكل واحدة منها سمات ومظاهر تميزها عن الأخرى. الأولى: تبدأ من لحظة وصول البرتغاليين إلى السواحل العُمانية عام 1507م، وتنتهي بعام 1624م. الثانية: هي المرحلة التي استفاق فيها العقلُ السياسيُّ العُماني من غفوته، وعمد إلى مقاومة البرتغاليين وطردهم من عُمان ومطاردتهم حتى خارج حدود المياه العُمانية.

### أولى الانطباعات

هنالك صعوبة في رصد الانطباعات الأولية التي تركها البرتغاليون في الذاكرة العُمانية بسبب تجاهل النخب الثقافية توثيق لحظة نزول البرتغاليين في المدن العُمانية، مع أن هنالك قدراً معقولاً من المعارف والإنتاج الثقافي في شتى فنون المعرفة رافق تلك الحقبة، منها ما هو لصيق بوجودان المجتمع، وانعكاساً لآماله وآلامه، مثل الشعر والفقه والوثائق الاجتماعية. فهناك ثلاثة دواوين شعرية عاصر أصحابها البرتغاليين، مثل ديوان سليمان بن سليمان النبهاني، وديوان موسى بن حسين المعروف بالكيدواوي، وديوان سالم بن غسان الخروصي المعروف باللواح<sup>(١)</sup>. إضافة إلى المئات من نصوص النوازل الفقهية منها ما يعود مباشرة إلى القرن الذي نزل فيه البرتغاليون، يضمها مؤلفان، الأول: منهاج العدل في ثلاثة أجزاء، لعمر بن سعيد المعدي البهلوي، ألفه بعد



أربعين سنة من وصول البرتغاليين، وتحديدًا عام 1550م. أما الثاني فهو كتاب الإيجاز، لأحمد بن خليل السيجاني، وهو الآخر أدرك البرتغاليين. كل هذه المدونات خلّت من الإشارة إلى البرتغاليين، ولو تلميحاً عارضاً. وكل ما يتوافر تحت أيدينا ويحمل ذكراً للبرتغاليين نصّان، لا يقدمان رؤية متكاملة وذات معنى. فالأول يعود إلى أحمد بن ماجد، وقد أشار في أراجيزه إلى أوروبا باسم «بلاد الإفرنج»، وهي إشارات جغرافية لا أكثر<sup>(2)</sup>. وأهمها ما ورد في الأرجوزة السفاليّة، عن أخبار وصول فاسكوا دي جاما إلى السواحل الشرقية لأفريقيا، والسواحل الهندية، وإن الإفرنج ستزداد معرفتهم بتلك الطرق، وألمح كذلك إلى علاقته بأحد البحارة البرتغاليين<sup>(3)</sup>. وبالرغم من ضآلة الأخبار التي يحملها هذا النص، فأهميته تكمن في كونه أوّل وآخر نصّ عماني وثّق المشاعر والانطباعات التي سادت لحظة نزول البرتغاليين سواحل المحيط الهندي، وما تركوه من آثار سلبية على الحياة الدينية والاقتصادية، فقد انقطعت المسالك وطرق الحج، وصار الناس منهم في خوف واهتمام، وإن تلك السفن البرتغالية بالإضافة إلى حملها الثقيل من الأسلحة المحشوة بالبارود والنيران، حملت معها أيضاً كرهاً وبغضاً للإسلام، يقول ابن ماجد<sup>(4)</sup>:

وجاء كاليكوت خذ ذي الفائدة

لعام تسعمائة وست زائدة

وباع فيها واشترى وحكما

والسامري برطله وظلما

وسار فيها مبغض الإسلام

والناس في خوف واهتمام

وانقطع المكي عن أرض السامري  
وشد جردفون للمسافر  
وخببرني ما حملة الفرنجي  
من جانب السودان شط اللجي  
وهو الذي قد قهر المغاربة  
وأندلس في حكمه مناسبة  
وأخر الإفرنج للشمال  
جزر كثير وهم له موالى

بعد هذا النص طال سُبَاتُ نصوص الثقافة العُمانية، ولم تفتح أعينها إلا أواخر القرن السادس عشر الميلادي، بذكر رجل إفرنجي بين ثنايا وصية تنسب لسلطان بن مسعود بن سلطان - أحد أعيان مدينة نخل - وجاء في تلك الوصية، ما نصّه: «أوصى مولانا المخدوم الأعظم، سلطان بن مسعود بن سلطان لفرطيس الفرنجي ثلاثمة لارية»<sup>(5)</sup>. وفي غالب الظن هذا الفرطيس برتغالي. لا تحمل هذه الإشارة العابرة انطباعاً صريحاً، ولكن أهميتها تكمن في المعنى الذي يقبع خلف تلك العلاقة التي تربط رجال الإفرنج بشخصيات عُمانية نخبوية تنتمي إلى مدن بعيدة عن السواحل. ومعنى ذلك أن هنالك فئات اجتماعية وسياسية لم تكن ترى في علاقاتها بالبرتغاليين من حرج، أو أن الأيام والسنين أنستهم آلام الماضي، وأنّ العلاقة مع البرتغاليين لم تعد من الأمور المستنكرة. ومن غريب الموافقات، التي تستحق الإشارة إليها في هذا المقام، أن مدينة نخل التي ينتمي إليها صاحب الوصية، أثارت اهتمام البرتغاليين، فقد ذُكرت في سجلات دلبوكيرك أولاً وتحديداً في أحداث عام

1507م. وبعد أقل من عقد ذكرها الرحالة البرتغالي دوارتشة<sup>(89)</sup>. ولا يوجد في البال معنى مؤكد لهذا التوافق، عدا أنها من الأمور التي تلفت النظر وتثير فضول البحث، ومما يزيد الغموض تجاهل حتى السجلات البرتغالية تقديم أسباب مقنعة للإشارة إلى الرستاق ونخل، في حين كان جُلّ تركيزها على المدن الساحلية دون غيرها خلال المرحلة الزمنية التي سبقت عام 1624م<sup>(6)</sup>.

وأخيراً وليس آخراً، لا نريد أن نقدم أعذاراً وحججاً لإهمال النخب الثقافية للوجود البرتغالي، وتجاهل البحث في نشأته وتحكمه في شؤون بلادهم، خلال الفترة التي سبقت قيام دولة اليعاربة، عدا أن طبيعة المرحلة فرضت نفسها، وتعددت هموم وشواغل المجتمع، فالإنسان البسيط أقصى اهتمامه وما يقض مضجعه البحث عن وسائل العيش والأمن، في ظل وضع أنهكته الحروب الأهلية وغياب الأمن الاجتماعي. أما العلماء فليسوا أفضل حالاً؛ فقد ابتعدوا عن الشأن العام، ولعل أدق وصف يعبر عن الحال الذي آلوا إليه ما قاله المؤرخ سرحان بن سعيد الزكوي (ق:18م): «انضمت العلماء في بيوتها ولازمت سربها»<sup>(7)</sup>. وهذا الاضطراب الذي كان يعاني منه الفرد العماني لم يترك مساحة للتأمل في تلك الأمم الغريبة التي نزلت في عُمان، والاهتمام بها معرفياً.

## اليقظة السياسية

شهد عام 1624م تنصيب الإمام ناصر بن مرشد اليعربي إماماً لعمان، واستيقظت عُمان ونفضت غبار الفرقة والتشتت، وساد الأمن الاجتماعي والرخاء الاقتصادي، وبعد ربع قرن تم طرد البرتغاليين من عُمان نهائياً. وبالرغم من هذه اليقظة السياسيّة؛ إلا أنه لم يتحسن مستوى المعرفة المتعلقة بالبرتغاليين إلا قليلاً، ومع ذلك؛ فمن هذا القليل يمكن رصد المواقف تجاه الأوروبيين؛ إذ شهدت هذه الحقبة تواصلاً مع شعوب غير البرتغاليين، مثل الهولنديين والفرنسيين.

وتتناثر المعرفة المتعلقة بالبرتغاليين بين شتى أصناف المدونات التراثية، ومن أهمها المدونات التاريخية، فهناك ثلاث مدونات: أولاً: «سيرة الإمام ناصر بن مرشد» ومؤلفها ابن قيصر، وهي الأقرب زمانياً للبرتغاليين. ثانياً: كتاب «كشف الغمة الجامعة لأخبار الأمّة» لسرحان بن سعيد الأزكوي. أخيراً: «قصص وأخبار جرت في عُمان» المنسوب لمحمد بن عامر المعولي (ت: 1777م). وما ورد في هذه المدونات من حيث الكمّ شحيحٌ للغاية، ولا يظهر منه أن هنالك قصد واضح يهدف إلى تقديم مادة ذات معنى عن البرتغاليين. فابن قيصر بالرغم من كونه عاصر قيام دولة اليعاربة وهو من كلّف بكتابة سيرة مؤسسها، ولكن كأنّ أمر البرتغاليين لم يكن يعنيه ولم يُثر اهتمامه باستثناء إشارات عارضة هنا وهناك. أما المدونتان الأخيرتان، وتنتميان إلى أواخر عهد اليعاربة، ولكنهما في الواقع نصّ واحدٌ أحدهما نقل من الآخر، فيما يتعلق بأحداث دولة اليعاربة<sup>(8)</sup>. بالإضافة إلى هذا الزهد في تناول قضية البرتغاليين في المدونات التاريخية، نجد أيضاً التعاطي مع الأمر بعاطفة باردة إن صح التعبير، فبعض الإشارات تخلو من أي إدانة أو موقف واضح، عدا ما يمكن رصده

من بين الأسطر، أو ما تحمله معاني المصطلحات الاجتماعية والدينية والسياسية من أبعاد، مثل تسميات النصارى والإفرنج والمشركين، وأعداء الله، والمجرمين، كما في النصوص الآتية: « ودانت له - الإمام ناصر بن مرشد اليعربي - سائر الشرفية ما خلا صور وقريات، فإنهما كانتا في أيدي النصارى»<sup>(9)</sup>. «ودارت رحى المسلمين والمجرمين للأخبار المشهورة، ووقع ما بينهم الضرب والطعن الشديد، وكان النصر للمسلمين على المشركين والتأييد، وهدموا ما احتوا عليه من مسكد من بروج بانخة ومبانٍ شامخة، وقتل من المشركين خلقٌ كثير لا يحصون عددا»<sup>(10)</sup>. وهذا الأسلوب البارد في التعاطي يسود المدونات الثلاث، فهو وصفٌ للأحداث في عبارات مقتضبة وبصورة خاطفة.

بيد أن ما غاب عن المدونات التاريخية، عوضته نصوص الشعر، أو حتى نصوص النثر التي كتبت بعاطفة الشاعر، ونقلت ما ساد في وجدان الإنسان العماني المعاصر لتلك الأحداث، بأسلوب يخاطب من الإنسان قلبه ووجدانه، وتعدى ذلك الخطاب الجاف المجرد الذي ميز المدونات التاريخية آنفة الذكر. فهناك نصٌ حتى وقت قريب لم يكن معروفاً عند الباحثين، كتبه الشاعر سليمان بن عامر الريامي (حي: 1721م)، وهذا النص جاء ليسد النقص الذي اعترى الرواية العمانية فيما يتعلق بأحداث طرد البرتغاليين من عُمان. ولسنا الآن بصدد الحديث عن أهميته من الناحية التوثيقية، بقدر ما يهمننا استجلاء تلك العاطفة التي تعمد الكاتب إثارتها، إذ يقول وهو يصف انتصار أهل عُمان على البرتغاليين: « فسر الإمام - ناصر بن مرشد - رحمه الله بذلك وشكر صنع مسعود وأصحابه وحمد الله تعالى على ما أمدَّ بهم من النصر على عبدة الأصنام وأعداء الملك العلام»<sup>(11)</sup>. ويتكرر هذا البعد الديني المثير للعواطف، والهادف إلى

رسم صورة ذهنية للبرتغاليين في عقل المتلقي، بتشبيه النصر بانتصار المسلمين في معركة بدر، يقول واصفاً انتصار العُمانيين على البرتغاليين في شرق أفريقيا: «ونصر الله المسلمين على أهل الكفار والعناد واشتهر في ذلك اليوم الشيخ محمد بن مسعود ... شهرة عظيمة وأبلى بلاء حسنا وكانت هذه الواقعة المشهورة أشبه بوقعة بدر»<sup>(12)</sup>.

ويتصدر هذا الخطاب المدجج بالمشاعر نص الريامي في أكثر من موضع، فبعد الانتهاء من وصف معركة مسقط بين البرتغاليين والعُمانيين، يقول: «فانظر أيها السامع لهذه القصة العجيبة الصحيحة التي أوردناها في أخذ القواد من أيدي الإفرنج، وتلك الواقعة العظيمة التي جرت في ذلك، فهي آثارها باقية إلى يوم القيامة، هل سمعت بمثلها في غابر الليالي والأيام وسالف الشهور والأعوام من قوم مجاهدين في الله سعدوا إلى جبال شامخة من بطون أودية هاوية، وأعداؤهم في بروج بانخة، قد شيدت على رؤوس تلك الجبال الشامخة ... بل سعدوا تلك الجبال، كأنهم أوعال؛ بل أسود قتال وليوث جدال ونزال، وقاتلوا الأعداء في تلك البروج البانخة، وبلغوا منهم مرادا وجعلوا هاماتهم لسيوفهم أعمادا. والله إن الإمام سلطان بن سيف-بن مالك اليعربي- لو لم تكن له من آثار الحرب إلا هذه لكفته فخرا وصيتاً طول المدى»<sup>(13)</sup>.

هذا النص وغيره وإن كان لا يحمل نظرة صريحة تجاه الشخصية البرتغالية، فحرص الريامي على مدح أولئك الرجال، ووصف ما جرى بهذا الثناء والفخر والزهو الباذخ، لم يكن ثناء مجرداً؛ وإنما تعبيراً عن الذهنية التي سادت حول أولئك الرجال الذين تمكنوا من دحر البرتغاليين. ناهيك عن الدلالات الدينية والسياسية للمفردات التي استخدمها النص، من مثل عبدة الأصنام، والمشركين، والنصارى، وعباد المسيح، وهي مفردات لها من الأبعاد ما لها<sup>(14)</sup>.

إضافة إلى نص الريامي؛ هنالك نصوص شعرية عُمانية ألمحت إلى البرتغاليين في مناسبات عديدة، وإن كانت لا تقدم معرفة عن البرتغاليين، إلا أن أهميتها تكمن في حملتها المثقلة بالمشاعر والصور الوجدانية تجاه البرتغاليين، وهي تعبير عفوي عما يدور في خلجات النفس تجاه الأوروبيين عموماً، والبرتغاليين خصوصاً. وهذه النصوص تنتمي إلى زمن التحام العُمانيين مع الحاميات البرتغالية. وما يميزها عن غيرها من النصوص، أنها عمدت إلى وسم البرتغاليين بعلامات وسمات الذل والخزي والعار. يقول محمد بن مسعود الصارمي بعد هزيمة البرتغاليين في بتة بشرق أفريقيا<sup>(15)</sup>:

كأنهم أعجاز نخل بها	منقعر من عاصفات الرياح
فانهزم الإفرنج من بتة	بالذل والخزي والافتضح
بعدا لهم بعدا وسحقا لهم	من قوم سوء ووجوه قباح
بعزم سلطان بن سيف الذي	أباد أهل الكفر يوم الكفاح

ويستخدم خلف بن سنان الغافري مصطلح بني الأصفر، وهو مفهوم ذو بعد اجتماعي مُستمد من الذاكرة الإسلامية؛ إذ يروى هذا المصطلح في حديث للرسول -صلى الله عليه وسلم- بأن علامة من علامات الساعة، أن تكون بين المسلمين هُدنة مع بني الأصفر «فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً»<sup>(16)</sup>. وأياً كان المقصود ببني الأصفر في الحديث النبوي، فاستحضاره من قبل الغافري في مناسبة سياسية محاولة منه لإضفاء البعد الديني، إذ يقول<sup>(17)</sup>:

فغدت من عُمان كف بني الأص	فر صفرًا قد هزّها الانهزام
ماد عن أرضها كفيتا ومور	بعد شهد له المرار طعام

وإضفاء البعد الديني على الصراع، يتكرر عند الغافري كما غيره من الشعراء، وتبرز هذه النظرة في المفردات الدينية التي يستخدمها، بوصفه النصر العُماني، بالفتح المبين، وأن عام النصر عامٌ للسعد والحبور، سرّت به نفوس أهل الإسلام، ويتعدّى هذا الفرع، إلى وصف البرتغاليين بالبقر<sup>(18)</sup>:  
زوقوا بني الأصفر العاصين حرب فتى ما إن خلا رجب منها ولا صفر  
بقرتم بطن علياكم بنقضكم ميثاق سيدكم يا أيها البقر

وتمضي نصوص الشعراء قدماً في إلصاق السمات السلبية، وإضفاء الأبعاد الدينية على الشخصية البرتغالية، فهم عبدة للأصنام، وخونة للعهد، وقلة في الإدراك وحساب عواقب الأمور. حتى إن الشاعر راشد بن خميس الحبسي (ت: 1738م)، لم يرَ من عيوب أوائل أئمة اليعاربة، إلا «الجود والكرم وقتل الكافر الباغي»<sup>(19)</sup>. وهذه الصور تكاد تترد عند كل الشعراء الذين أتوا على ذكر البرتغاليين، وتندم الصور الإيجابية تماماً<sup>(20)</sup>. والهدف من هذا الحطّ من قدرهم، وهي مشاعر خرجت من رحم سنينٍ مُثقلة بالآلام، كان البرتغاليون سبباً فيها، فالسياق الذي نشأت فيه، لم يترك مساحةً للتعقّل في النظرة للبرتغاليين. وهذه المعاني والصور والمشاعر، تكررت في المدونات التاريخية التي ظهرت لاحقاً، وأولها كتاب «الفتح المبين» لابن رزيق، الذي جاء بعد أكثر من مائتي سنة من طرد البرتغاليين، ويحسب له سعيه الحثيث ورغبته في التزود بمعرفة أشمل، عن طريق جمع الروايات من ألسن الرواة؛ إذ نقل عن الرواة ما ترسّخ في العقل العُماني عن البرتغاليين، ولأول مرة يظهر اسم البرتكيس - البرتغاليين - في مدونة تاريخية. ومع ذلك؛ ذلك فقد وقع ابن رزيق في خطأ، حين اعتبر ملك البرتغاليين لمسقط شراء، ولم يكن اغتصاباً من أهلها، كما يقول: «مسقط معروفة، والعامّة تسميها مسكدا



غلطا، وهي بالطاء المهملة لا بالذال التي لم تنقط. عمرتها بعض عرب عُمان، وهم يمن الأنساب، فغرسوا فيها نخلا وأشجارًا تسقيها آبار، وآثار هذه الآبار باقية إلى هذه الغاية، سنة الخمس والسبعين والمائتين والألف. ثم اشتراها النصرى البرتكيسية منهم، فسورها من حد جبل المكلا إلى جبل السعالي، وأحدثوا فيها حصنين كبيرين، شرقيا وغربيا»<sup>(21)</sup>.

انتهى اهتمام نصوص الثقافة العُمانية بالبرتغاليين في الفترة الزمنية قيد الدراسة بكتاب «تحفة الأعيان» لنور الدين السالمي، وعندما طبع هذا الكتاب، قيل عنه إنه «يحتوي على قسم زاهر فخم من عصور عُمان وكفاح الأئمة اليعاربة مع الاستعمار العتيد... والنهوض بالأمة العُمانية العربية إلى أوج العربية إلى أوج العلا والسعادة»<sup>(22)</sup>. نعم نهضت الأمة العُمانية في العهد المذكور، وكافحت الاستعمار العتيد. ولكن السالمي نفسه اشتكى من القصور المعرفي الذي طال هذا الكفاح، إذ يقول «ليتهم أرخوا وقائعه بالنصارى وفتوحاته أرض الهند»<sup>(23)</sup>. أما بقية ما ورد من عند السالمي عن البرتغاليين فهو لا يختلف كثيراً عن سابقه.

وأخيراً؛ وبالرغم من وجود صلات عُمانية مع أمم أوروبية بعد طرد البرتغاليين من عُمان، وهذه الصلات اختلفت في شكلها وطبيعتها عن العلاقة مع البرتغاليين، ولكن لا ذكر لها في نصوص التراث، باستثناء بعض المراسلات التي تشير إلى علاقة ودية مع الهولنديين، منها رسالة تنسب للإمام سلطان بن سيف بن مالك اليعربي (ت: 1680م)، وهي تحمل معاني لائقة ومفعمة بالود واللفظ؛ إذ يقول فيها الإمام واصفاً رسالة السيد هندريك فان ويك «وصلتنا رسالتك، التي نعتبرها جوهرة لأهميتها. إن رسالتك تلك ملأى بالتفهّم مُفعمة بالتعبيرات اللائقة ومحلاة بعبارات الود والنبيل واللفظ والأدب. وهي مصقولة ومضيئة، وأنارتنا كما ينير القمر

الأرض، وهي مؤثرة وفعالة تدخل السرور إلى أكثر النفوس حزناً؛ لأنها جاءت من طرف أقرب الأشخاص إلى قلوبنا»<sup>(24)</sup>. ثم يواصل الإمام سرد مثل هذه المشاعر، ويعلن عن استعداده لإقامة علاقات الصداقة والتحالف بقوله: «نود أن نؤكد بأن مدينتنا التجارية هي مدينتكم التجارية، وأن مشاعر الصداقة والتحالف سوف تكون متبادلة بيننا، وأنه سوف يعمل بكل التفاصيل المتفق عليها، وأنا في غاية السرور، يا أعز أصدقائنا، لقدومكم الكريم... ونحن نعدّ من طرفنا أن لا يصدر عنا سوى الصدق والإخلاص في مختلف الظروف».

هذه الرسالة نموذجٌ لنظرة السياسيِّ العمانيِّ للشعوب الأوروبية، وتتكسر معانيها في أغلب الرسائل السياسيّة؛ ففي رسالة أخرى من الإمام سعيد بن الإمام أحمد (ت: 1811م) للفرنسيين، يصف علاقته بهم، ما نصه: «نعتقد محبّتنا نحن مع فرنسا من قديم الزمان... وقربنا نحن مع فرنسا أقرب من كل الناس، ومالنا ومالككم واحد، والبنادر واحد، والضرر والنفع كله واحد، وما يحتاج إلى تبيان والقلوب في هذا شواهد»<sup>(25)</sup>. هذه النظرة والمشاعر التي تحملها المراسلات السياسيّة، قد تغلب عليها المجاملة السياسيّة، وقد تكون تعبيراً صادقاً عما يُكنّه الضمير السياسيّ تجاه فرنسا<sup>(26)</sup>.

## هوامش

1. للمزيد انظر: النهاني، سليمان بن سليمان، ديوان النهاني، تحقيق عز الدين التنوخي، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 2005م): الحسيني، موسى بن حسين، ديوان الكيدواي، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 2013م): الخروصي، سالم بن غسان، ديوان اللواح، تحقيق محمد علي الصليبي، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 1989م).
2. ماجد، أحمد، الفوائد في علم البحار، مخطوط، ص: 245، 270.
3. السعدي، أحمد بن ماجد، ثلاث أزهار في معرفة البحار أحمد بن ماجد ملاح فاسكو دي جاما، تحقيق ونشر تيودور شوموفسكي، ترجمة محمد منير مرسي، (القاهرة: عالم الكتب، 1969م)، ص: 44.
4. نفسه، ص: 44-40.
5. البطاشي، إخاف الأعيان، ج 2، ص: 146.
6. دوارتشة وصف جزر الهند، ص: 168.
7. حسب النصوص البرتغالية التي تمكن الباحث من الاطلاع عليها، ركزت على ذكر المدن الساحلية بينما تجاهلت المدن الداخلية، وظل هذا الأمر سائداً حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي.
8. السالمي، خفة الأعيان، ج 1، ص: 410.
9. للمقارنة بين النصين انظر: الأزكوي، المقتبس من كشف الغمة، ص: 100-97: ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر، ص: 22-56.
10. الأزكوي، المقتبس من كشف الغمة، ص: 97.
11. ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر، ص: 41-40.
12. الريامي، سليمان بن عامر، مخطوط شرح القصيدة الخفية، لدى الباحث نسخة إلكترونية، ص: 197-198.
13. الريامي، القصيدة الخفية، ص: 200.
14. نفسه، ص: 267.
15. الريامي، القصيدة الخفية، ص: 196-276.
16. السالمي، خفة الأعيان، ج 2، ص: 80.
17. العظيم آبادي، أبي الطيب محمد شمس الحق، عون المعبود شرح سنن أبي داود، عبد الله محمود محمد، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ج 11، ص: 111.
18. السالمي، خفة الأعيان، ج 2، ص: 67.
19. البطاشي، إيقاظ الوسنان، ص: 82-81.
20. الحبسي، راشد بن خميس، ديوان الحبسي، تحقيق عبد العليم عيسى، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 1992م)، ص: 84.
21. للمزيد حول السمات التي خلعتها الشعراء على البرتغاليين انظر: البطاشي، إيقاظ الوسنان، ص: 81، 82، 84، 85، البطاشي، إخاف الأعيان، ج 3، ص: 264، 283، 139، 477، 122.
22. ابن رزيق، حميد بن محمد، الشعاع الشائع بالمعان في ذكر أئمة عمان، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 1405هـ/1984م)، ص: 221.
23. اعداد مجلة المنهاج، لصاحبها أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، مسقط: 1431هـ/2010م، ص: 919.

24. السالمي. حفة الأعيان. ج. 1. ص: 49.
25. سلوت. عرب الخليج. ص: 179-180.
26. القاسمي. سلطان بن محمد. الوثائق العربية العمانية في مراكز الأرشيف الفرنسية. (الشارقة: 1993م). ص: 20.

## رابعاً: بواعث نظرة التوتّر والقلق

## رابعاً: بواعث نظرة التوتر والقلق

منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، بدأت تختفي تلك الروح الوثأبة التي طبعت ملامح الأدب الذي نقل وقائع أهل عُمان بالبرتغاليين، وتلاشى ذلك الشعور بالزهو والفخر من بين ثنايا نصوص الثقافة العُمانية عموماً؛ فلم نعد نلمس ذلك الحسّ الذي تُعبّر عنه أبيات خلف بن سنان الغافري الآتية<sup>(١)</sup>:

أذل كل عزيز من ثغورهم                      فانزلوا من أعالي كل شاهقة  
وهشمت منهم الهامات والثغر                  لهم عليهم شهيق دمه درر

الذي تهشّم هذه المرة الوحدة السياسيّة، وهمدت تلك القوة الضاربة لعُمان، واعترى الذات الاضطراب والقلق من أدنى وارد سياسي وثقافي، بسبب ما أصاب عُمان من حروبٍ ونزاعات أهليّة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى أقلّ نجم البرتغاليين وحلّ بدلاً منه نجم قوى أوروبية صاعدة. ومع تزايد حدّة التنافس بينها؛ ظل يُنظر إلى ذلك النزاع أنه يجري بعيداً عن الساحة العُمانية، وهذا ما يظهر في المسألة الفقهيّة الآتية، التي رفعت إلى الشيخ جاعد بن خميس الخروصي (ت: 1821م)، وتقول: «عن الطائفتين من النصراري وهما الإنجليز - الإنجليز - والفرنسيس إذا كانتا محتربتين، ويتسابون الأموال والمراكب، وكل منهما ينهب من الطائفة ... أيجوز لمن أراد أن يشتري شيئاً من المراكب المنهوبة؟ قال: إن الطائفتين ليسوا على حرب مع أهل عُمان، وفي الشراء من الأملاك المنهوبة منهم اختلاف، وقال أبو جعفر (ق: 9م) لا يجوز، وكذلك محمد بن محبوب (ت: 873م) أجازهُ»<sup>(٢)</sup>.

لم يدم هذا الحال طويلاً وبدأت الأطراف الأوروبية المتصارعة تضع عُمان في حساباتها؛ مما أدّى إلى أن يتسلل التوجّس إلى العقل العُماني، وهو الذي أحكم النظرة العُمانية طويلاً تجاه كل ما هو أوروبي، وطبعها بملامحه، وذلك ظاهرٌ في النصوص التي تناولت الشخصية الأوروبية: سياسياً وثقافياً وسلوكياً.

### الحذر السياسي

برزت علامات الحذر السياسي من السلوك الأوروبي منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وتجلّى في محاولة غلق كل المساحات أمام الأوروبيين، وعدم إتاحة المجال لأيّ طرف منهم، إلا أنّ اللعبة السياسية في المحيط الهندي، لم تترك لعُمان خياراً. فساد التوجس من الطموح الأوروبي، وترك أثراً حتى على تفكير النُخب السياسيّة، فالسيد سعيد بن سلطان ورث من أبيه ثقل أول اتفاقية مع بريطانيا عام 1798م، تلك الاتفاقية التي قبلها السيد سلطان بن الإمام أحمد على مضض، وبعد حوالي عقد من الزمان أتى ابنه ليعبر عن السياق الذي دفع السلطة إلى التقارب مع بريطانيا في رسالة أرسلها إلى حاكم موريشس الفرنسي عام 1807م، جاء فيها: «إن الذي حملنا على الجمالة مع جماعة الإنكريز - الإنجليز - من وقت إلى وقت، هو سبب قربهم إلى بلداننا، وحاجتنا إلى بنادرهم»<sup>(3)</sup>. هذا النصّ يحمل بين جنباته شعوراً بعدم الاطمئنان وإحساساً ينعدم فيه اليقين. وهو شعور درجت ألسن النُخب السياسيّة على إخفائه، وإظهار ما يخالفه في مراسلاتهم، إذ نجد أغلب المراسلات تحمل ظاهرياً عبارات الاحتراف والثناء المفرط في أحيان كثيرة، فالسيد ثويني بن سعيد بن سلطان (ت: 1866م) يقول عام 1859م، في رسالة للقنصل البريطاني بمناسبة إعلان بريطانيا

احتلالها الهند رسمياً: «ليظهر على الخاص والعام مودتنا وإخلاصنا لحضرة الملكة المفخمة، فلهذا زيناً البلد وأمرنا - أن يعملوا- بها ثلاثة ليال متواترة سرجان ونشرنا جميع البيارق في المراكب»<sup>(4)</sup>. كتب هذا النص بعقلٍ سياسيٍّ، وفي العادة تغلب عليه المجاملة السياسيّة والمداراة، وليس بالضرورة أن يكون ذلك تعبيراً صادقاً عن مكان النفس، فالظروف والحاجة السياسيّة أنتجت هذه الشاكلة. وهذا أمرٌ يحتمّ علينا المباحة بين نظرة هذا النوع من النصوص وبين غيرها، لا سيما نصوص النخب الثقافيّة والأدبيّة وحتى نصوص الثقافة الشعبيّة، وهي نصوص تعبر بصدق عمّا يختزنُ وجدان أصحابها، ومتحررة من أسباب المداهنة والتملّق. وهي الوعاء الذي يحملُ تمثّلات الصورة الأوروبيّة، وانعكاسُ حقيقيٍّ لما يكمن في الصدور وما يشغلها إزاء الأوروبيين عامة.

عمدت النخب الثقافيّة إلى خلق صورة ذهنية حول الأوروبيين اتّسمت بالشكّ والحذر من كل مظهر سياسيٍّ أوروبيٍّ في عُمان منذ القرن التاسع عشر الميلادي، وقدمّوهم للمتلقّي بطريقة تضعهم موضع الساعين إلى التحكم بالبلاد والعباد، وقد كانت نصوص الشيخ نور الدين السالمي من أكثر النصوص ترسيخاً لهذه النظرة، إذ يقول عن أهدافهم وغاياتهم: «هدم الإسلام ويدخلون البلاد للتجسس عن عوراتها، فالداخل منهم جاسوس دولته... ومن سار به فهو معين له على سعيه الفاسد... ولو انسدّ على النصرارى - الأوروبيين- باب الدخول في بلاد الإسلام لتعدّر عليهم مع معرفة ما فيها من صلاح وفساد، وحين فتح الباب نظر الأعداء إلى العورات ووضعوا أقدامهم مواضع كانوا لا يعرفونها، ومدوا أيديهم إلى أشياء كانوا لا يطمعون فيها»<sup>(5)</sup>. ومعنى هذا النصّ ليس تخيلاً أو توهماً أو قلقاً غير مبرر؛ إنما هو مطابقٌ لواقع الحال، ولم يكن يتردد في وجدان فئة ثقافية



دون غيرها، بل كان راسخاً حتى في ضمير الإنسان البسيط ونقلته نصوص الثقافة الشعبية، فمن خلال نصّ شعبيّ ينتمي إلى فن العازي، يعود إلى أوائل القرن العشرين، جاء فيه ما يحمل المعنى ذاته:

يا لابتي الكافر طغي      غربيّ الروي سوى خيام<sup>(6)</sup>

أثرت هذه الصورة التي رسمت للأوروبيين في سلوك أفراد المجتمع، وولدت لديهم إحساساً بالشك والريبة؛ وأصبحوا يتساءلون حتى خوفاً من الوقوع في الآثام إذا ما قام المرء بتأجير منزله لأوروبي، وظهر هذا التوتر النفسي قبل عام 1871م، في نص رُفِع إلى الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي (ت: 1871م)، جاء فيه نصاً: «هؤلاء النصارى لا تجري عليهم الأحكام، ويبيتون في سطوح البيوت اللاتي يكترونها- يستأجرونها- ويكشفون بيوت الناس. أترى صاحب البيت سالمًا أم عليه أن يستر بيته»<sup>(7)</sup>. لم يكن سبب انزعاج هذا الرجل باعثة أخلاقيّة وقيميّة فحسب؛ إنما سياسيّة أيضاً، وهذا ما يتأكد في تساؤل آخر رفع لنور الدين السالمي، فأجاب: «إن كان يحصل بذلك للنصارى- الأوروبيين- قوة على البلاد فوق المعتاد... لأنه تقوية لهم ... وإن كان لا بيدهم قوة ولا تمكنا فلا بأس به»<sup>(8)</sup>. السالمي كان يقظاً في جوابه، وفطناً من وضع الأوروبيين في سلة واحدة؛ فالأمر الذي كان يقلقه من تأجير المنازل لهؤلاء الغرباء أن تحصل لهم قوة فوق المعتاد، وليس فزعاً من حضور اجتماعي لا يعطيهم قدرة. أشغل هذا الهاجس السياسي الإنسان العماني ورسخ نظرته للأوروبيين، بسبب بعض السياسات التي أحدثتها تلك القوى، فقد كافح الإنجليز لإدخال الكثير من النظم والإجراءات، وهُدّدت معالم النظم السياسية والاقتصادية والثقافية التي اعتاد عليها أهل عُمان، حتى أصبحت النخبة السياسية

تعبر عن هذه الصورة خلصة، وكلما سنحت لهم سانحة، فالسلطان سعيد بن تيمور تحدث لبعض جلسائه عام 1937م، أنه «يشتكي وقوع الإهانة والتشديد منكم - أي من الإنجليز- وأنكم تطلبون مطالب ثقيلة منه ولا يقدر أن يدافع عن نفسه ويريد من الأمة العُمانية الرابطة معه الانضمام إلى كلمة واحدة؛ لكي ينجو من هذه المطالب من رجال الدولة - أي من مطالب الإنجليز»<sup>(9)</sup>.

هذا الشعور الذي يحمله العقل السياسي ضاع بين كومة من النصوص التي تحمل طابع المجاملات السياسيّة، بينما كانت الضمائر تُكَنّ صورة أخرى غير تلك الظاهرة، وموقفًا يتوافق فيه مع الوجدان الشعبيّ، حتى صار علامة للأوروبيين، ومظهرًا من مظاهرهم، وتولدت من بين ثناياها ردة فعل عفوية، تقاوم كل مظهر أوروبي، وأصبح ينظر إلى أي سلوك من تلك القوى على أنه محاولة لزعزعة الكيان السياسيّ والثقافيّ العماني، أو بتعبير نور الدين السالمي امتصاصا للدين والدنيا؛ إذ يقول معلقًا على استحداث ضرائب جديدة في زنجبار من قبل الإنجليز، والادعاء أنها من أيام الإمام سيف بن سلطان اليعربي(ت:1711م) والسيد سعيد بن سلطان(ت:1856م): «ليس لملوك النصارى ولا للجبابرة من المسلمين مثل ما كان للإمام العادل القائد بأمر الله وأمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - على أن السبب الذي سوّغ ذلك للإمام إن صح المدعي فقد اختفى، فلعله كان موجبا قد ارتفع الآن، فالأخذ منهم مع ارتفاع الموجب باطل، وعلى كل حال فنحن ننزه المحمديّة الغراء من هذه المغارم الباطلة والله المستعان، أما كفى النصارى أن يمصوا اللحم والدم حتى يمصوا الدين»<sup>(10)</sup>.

## القلق الثقافي

تعاملت النخب الدينية والاجتماعية مع مظاهر الثقافة الأوروبية منذ البداية على أنها خطرٌ يهدد كيانهم الثقافي، وعمدوا إلى بث مشاعر من الخوف تجاه كل فكر مصدره أوروبا. لا سيما تلك الأفكار التي بدأت تتسلل عبر الموظفين الأوروبيين والرحالة ورجال الدين. وحملت نصوص التراث ذلك الذعر والخوف، وتشكلت على إثره صورة ذهنية تضع الأوروبي في صورة الساعي إلى حرف المجتمع العماني عن المسار الذي اختاره لنفسه. وبدأت ردود الفعل تتوالى إزاء الأفكار الوافدة، أولها كان ضد ترجمة عربية لنصٍ دينيٍّ مسيحي تم تداوله في عُمان، خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهو: «... كتاب يقال له الدك من تأليف النصراني...». وبذل الباحث جهداً بهدف الوقوف على كتاب بهذا الاسم ولم يصل إلى نتيجة، ولعلّه تصحيف لاسم آخر، أو نسبة إلى المترجم، ويبدو هذا هو الراجح. فقد ظهرت ترجمات للكتب الدينية المسيحية في الهند، ووصلت حتى إلى بلدان شبه الجزيرة العربية، منها على سبيل المثال ترجمة للقس الأمريكي «فان دايك». ولعلّ هذه الترجمة وصلت إلى عُمان، فسمي الكتاب نسبة إلى المترجم<sup>(11)</sup>، استناداً إلى التقارب بين رسم الاسمين، لا سيما وأن العبادي لغاية عام 1837م كان حياً. وأيا كان اسم الكتاب، فالمؤكد أنه أحد الكتب الدينية، تنبه العبادي لمعناه «الرخيص» وحذّر من الغوص فيه والتحذير منه، يقول<sup>(12)</sup>:

كتاب الدك تسمية ومعنى من الفاني فدعه هو الرخيص  
فلا يرقّ بريوته خليلي وباطنه فذره فلا تغوص  
رأيت به اعتقادات النصراني وكذلك لليهود به نصوص

سارت نظرة النصوص الفقهية على هذا المنوال، يدفعها إلى ذلك الشعور بالخوف من الخطر الذي بات يمسّ وجدانها الديني. ويبدو أن التحذير الذي بدأه العبادي كان له صدى بين أوساط العلماء والنخب السياسيّة، ففي عام 1825م كلف السيد طالب بن الإمام أحمد بن سعيد أحد العلماء بتأليف كتاب: «شمس أدلة الحيارى في كشف تلبيس علماء اليهود والنصارى». وعنوانه يكشف عن مضمونه، يقول مؤلفه: «فقد حصل العثور على صحائف صادرة عن بعض فرق النصارى، صادرة بتفضيل ملّتهم على سائر الملل إشهاراً وافتخاراً، إلى غير ذلك مما ابداه من سوء التهوّد وعوراتهم واحتجاجاً في زعمه عليهم بتوراتهم، مع ما نبه عليه... من نقض قواعد الملة المحمديّة، وتثبيت أصول الشريعة المنسوخة العيسوية»<sup>(13)</sup>. تتكون بنية الكتاب من قسمين الأول خصصه المؤلف للحديث عن فضل الرسول صلى الله وسلم. أما القسم الثاني فقد اشتمل على «نقض حجج النصارى وشريعتهم». إذ يقول في القسم الأخير «والقسم الثاني على خمس فصول، الأول في نقض ما اعتلوا به من ترجيح شريعة المسيح على شريعة المصطفى. الفصل الثاني في نقض ما اعتلّ به من ترجيح الشريعتين من جهة تفضيل المسيح على محمد صلى الله عليه وسلم. الفصل الثالث في نقض ما اعتلّ به من تمييز الأسباب التي بواسطتها انتشرت كلتا الشريعتين. الفصل الرابع في نقض ما اعتلّ به من الترجيح بين عيسى ومحمد. الفصل الخامس في نقض ما اعتلّ به من الرد على المسلمين من كتب اليهود والنصارى»<sup>(14)</sup>. وبعد حوالي أكثر من سبعين سنة ظهر كتاب آخر، يرسخ لنفس الرؤية إلى الثقافة الأوروبية، وهذه المرة من قبل الشيخ نور الدين السالمي، وأسماه «رسالة بذل المجهود في مخالفة النصارى واليهود». وكان الباعث على تأليف تلك الرسالة كما يقول: «وذلك حين نزع الله حكومة زنجبار من أيدي

المسلمين بما كسبت أيديهم وسلط عليهم عدوهم بما تركوا من أمر ربهم، فاحتلها النصارى بالمكر والخدائع، ونصبوا لهم أنواع الحيل السالبة للدين، رغبة في سلب دينهم كما سلبوا دنياهم»<sup>(15)</sup>. وتعددت قضايا هذه الرسالة، وتنوعت جوانب القلق، ما بين اجتماعية وثقافية ودينية. وهذا ما يظهر من محاورها الستة، وهي كالآتي: « الفصل الأول في التحذير من مدارس النصارى. الفصل الثاني في لباس النصارى. الفصل الثالث في تعليم اللغة الأجنبية. الفصل الرابع في حلق اللحى. الفصل الخامس في سبب دخول النصارى بلاد الإسلام. الفصل السادس في الحث على التناصر والتأزر والاستعداد»<sup>(16)</sup>. أجمل هذا النص الجوانب التي أقلقَت الإنسان العُماني، فلم يكن الهاجسُ الديني وحده الذي خلق الاضطراب، ودفع بالنخب الثقافية إلى الانتفاضة، فهناك المدارس الأجنبية واللغة واللباس. ولم يكن السالمي وحده من يرى هذه النظرة، فالحذر من المدارس الأجنبية، والطب الأوروبي، نجده حاضراً في نصوص فقهاء آخرين كذلك، فهذا عيسى بن صالح الحارثي(ت:1946م)، يرى خطر المدارس الأوروبية والتهافت عليها «يجر إلى تعطيل مدارس المسلمين وتزيين لغة المشركين، قال بعض العلماء شعرا:  
لعن النصارى واليهود فإنهم بلغوا بمكرهم بنا الآمالا  
خرجوا أطباء وحسابا لكي يتقسموا الأرواح والأموال»<sup>(17)</sup>.

وهذا الموقف تجاه مظاهر الثقافة الأوروبية يهدف إلى ترسيخ مقاومة ذهنية تحد من تأثيراتها وتنزع أي مصداقية عن تلك الثقافة، ولم يقتصر إنتاج هذه الوسائل على النص الديني، بل أسهم في ذلك حتى عقل الإنسان البسيط، وقادته عفويته أن يسجل موقفاً تجاه كل ما رآه غريباً على أفكاره وثقافته. فالرحالة سيف بن ناصر اليعربي<sup>(18)</sup>، صاحب كتاب

«أول قطرة من طل». وإن كان يبدو من مؤلفه اطلاعه الواسع، فلا يظهر أنه يحملُ موقفاً حاداً تجاه الأفكار الأوروبية، فهو يُجَلِّبُ بعض النظم التي أدخلها الأوروبيون ويثني عليها في مواضع شتى من كتابه، ومع ذلك نجده يصف مدارس زنجبار بإحساس نابع من شعور بالخطر إذ يقول: «جعلت مضلات يفسدون بها أبناء الإسلام، سموها اسكول - مدارس - عمروا بيوتا عالية لتدريس دينهم، أي دين النصراني، أدخلوا فيها العرب أولادهم بها ذكورا وإناثا، فترى البنات لابسات لبس النصرانيات»<sup>(19)</sup>. قد يفهم من هذا النص أنه يحمل مواقف عدائية حتى ضد التطور والتحديث، وهذا فهمٌ محلٌّ؛ فالقضية ليست بهذه البساطة، فهي أعمق من ذلك بكثير، فعداء الإنسان العُماني لمظاهر الثقافة الأوروبية إبان تلك الحقبة، سببه تلك القوة المحركة والكامنة خلفها، وفزعاً من الهيمنة الثقافية والسياسية التي تسعى إلى «سلب الدين والدنيا» كما يقول نور الدين السالمي. فلم تتسلل الأفكار الأوروبية بطريقة ودية في شكل مثاقفة طبيعية، إنما كانت فرضاً بالقوة، بهدف التأثير على حق الفرد في الاختيار أو التفكير وفق منظومته الثقافية. وقد تنبعت السيدة سالمة بنت سعيد وهي في وسط أوروبا إلى الآخر الساعي إلى فرض ثقافته، ودعت إلى الاعتراف بحق الأمم والشعوب بالعيش وفق منظورها، إذ تقول: «أما المسلمون فإنهم يواجهون في الثقافة الأوروبية عناصر كثيرة جدا لا تتفق مع نظرتهم الدينية المتشددة مطلقا. لقد بذل الأتراك أكثر مما ينفعهم ليتحضرروا ولو إلى حد ما. أضعفوا بذلك أنفسهم ولم يصبحوا مع ذلك متحضرين، لأن الحضارة الأوروبية تتناقض وتتعارض مع جميع معتقداتهم الأساسية. لا يمكن فرض التحضر بالقوة، وعلى المرء أن يعترف للشعوب الأخرى بحق تطوير وجهات نظرها القومية ومؤسساتها كما تشكلت عبر مئات السنين، ليس دون تأثير التجارب

الناضجة والحكمة العملية. وقبل كل شيء سيجرح المرء العرب بعمق إذا ما أراد فرض تنويره، بدءاً بنظريات العلوم الطبيعية التي لا يمكن التحدث هنا عن ثقافة عميقة دونها، ستهز كيانه كاملاً وتسبب له أسوأ ازدواجية»<sup>(20)</sup>.

### صورتان متضادتان

تسللت صورة أوروبا إلى نصوص التراث العُماني عبر ثلة من الأفراد، شكلوا الجهاز الإداري للحضور الأوروبي، وتحديدًا الوكلاء السياسيين، والموظفين، والرحالة، والمبشرين المسيحيين. واتخذ سلوك هذه الفئات وطرق تفاعلهم وغاياتهم وأهدافهم معياراً للحكم على سمات الشخصية الأوروبية، وبرزت صوراً تتسم بالتعميم المطلق في بعض الأحيان، ليست بالضرورة استناداً على واقع حقيقي. ويتضح أثر سلوك الموظف في صناعة صورة الشخصية السياسية الأوروبية في الحكم الذي أطلقه الإمام محمد بن عبد الله الخليلي (ت: 1954م) حين سئل عن القوانين الفرنسيّة، قال: «لا نعمل قوانين فرنسة ولا نظنها مستقيمة. إعانة الظلمة على الظلم لا نجيزه، فإن أجروا على الناس أمراً بظلم في خراج فالسلامة في عدم الدخول»<sup>(21)</sup>. وهذا الحكم المطلق راكمته سنين من التدخل في شؤون البلاد و«عدم الكف عن أمر المسلمين»<sup>(22)</sup> بتعبير الإمام سالم بن راشد الخروصي (ت: 1920م)، والرغبة في التحكم في مصير الأمة. ووثقت نصوص التراث ما علق في الذهن وما تكنه الصدور من مشاعر، ويظهر من مواقف النخب الثقافية أن هناك تبايناً في النظرة، ولم تكن ثابتة ذات مسار واحد، إنما يعترئها التبدل والتغيّر بفعل الأحداث والسياقات، وتأثرت بعاملين مهمين: أولاً: طبيعة النص: فالنصّ الفقهيّ من أكثر الأشكال إنتاجاً للصورة السلبية، وأكثر تماسكاً. بينما يحمل النصّ الأدبيّ مواقف متناقضة، وتحضر بين

جنباته صورتان متضادتان. ثانياً: الموقف السياسي لصاحب النص، ومدى قربه من دائرة السلطة.

تراوحت النظرة وفق هذه الاعتبارات بين السلبية والإيجابية، وتمثلت النظرة السلبية في صفات المكر والخيانة والاحتيال وعدم الوفاء. ونصوص نور الدين السالمي من أكثر النصوص إشاعة وتثبيتاً لهذه المعاني، فقد نظر إلى تقرب الإنجليز من السيد سعيد بن سلطان، بقصد معالجة مشاكله السياسية، غفلة منه، ومكراً وخداعاً من جانب الإنجليز، إذ يقول: «وكانت هذه الاستعانة منه أول سبب تدخلت به النصارى- الإنجليز- في ممالك المسلمين- أهل عُمان- فبقوا آفة في ذراريه، وعلّة في مملكته يظهرون الصداقة ويضمرون العداوة وإن أنكى الأعداء من يأتيك في صورة صديقك يظهر محبتك ويُضمر هلاكك»<sup>(23)</sup>. وتمضي النصوص في نزع صفة الوفاء والعهد والذمة، لكونهم يحاربون «الناس حرب الشياطين لبني آدم، يبيتون -يعملون- لهم الحيل والخدائع، ويبيتون لهم غارات المكر من كل جانب»<sup>(24)</sup>. وتتسم هذه الرؤية التي جاءت بها هذه النصوص وغيرها بالثبات نوعاً ما، حتى غدا كلُّ فعل من أوروبي، يُنظر إليه بعين من عدم اليقين، وما هو إلا مكر وخديعة، وإن كان ظاهره خلافاً لذلك، فعندما أراد القنصل البريطاني عام 1902م زيارة وادي الفليج بولاية صور، متعللاً بالسياحة، لم يقنع أهل الشرقية هذا العذر، وعبر عن موقفهم ونظرتهم إزاء تلك السياحة المزعومة الشيخ نور الدين السالمي، قائلاً:<sup>(25)</sup>

طلب النصارى أرضنا	بمكيدة لم تحتسب
وعن الخيانة إنها	عار قبيح في العرب
متعللاً بسياحة	وقناصة تقضي الأرب
فأتى القنصل قاصياً	لمكاننا كي يختلب



وإن كان السالمي عرف بمواقفه الصلبة إزاء الأوروبيين عامة، والإنجليز خاصة، فالرؤية التي تبناها وسعى إلى الترويج لها لا تبتعد عن نظرة الآخرين وتتوافق معها في جوانب شتى، حتى مع أولئك الذين لم تعرف لهم مواقف سياسيّة واضحة. فالمصلحة السياسية عند ابن شيخان هي المحرك للسلوك الأوروبي، وليست الأخلاق والعهود والذمم، إذ يقول معاتباً أهل عُمان حين ظنوا أن الإنجليز يمكن أن يكونوا عوناً لهم: (26)

تلك عباد المسيح اختبرت	أمركم هل طال سعيًا أم كبا
فإذا ما استضعفوا أمركم	جعلوكم مغنماً أو منهباً
وإذا ما استصعبوا أمركم	أدبروا عنكم وصدوا هرباً
وعُمان حركت أرجاءها	وغدت تجري دبوراً وصباً؟
والنصارى في الذي ليس لهم	فيه نفع لم يكونوا سبباً

هذا الشعور تجاه «النصارى» ليس ثابتاً تماماً، ويتبدل حسب السياق، فالشاعر المعروف بأبي الصوفي، تغلب على نظرته صورتان متضادتان، مرة تحمل ملامح إيجابية، ومعاني المدح والثناء، فقد رفع من قدر الوكيل السياسي البريطاني في إحدى قصائده، ووصفه بالعلم المنتصب فوق رؤوس الرجال، يقول (27):

القنصل المخفور يمشي	بيننا لم يحتجب
فكأنه علم على	رؤوس الرجال قد انتصب

ويقول في موضع آخر عن الأوروبيين أنهم من الأمم الراقية في استنباط الحكم «تكل عن درك اختراعاتها الأذهان وانحطاط العرب عن درجة أسلافهم» (28). وفي الوقت نفسه يكتب عام 1913م أبياتاً يحذر فيها من

الأوروبيين» مخافة دخول مملكة عُمان بأيدي النصارى وتسلمهم على الإسلام»<sup>(29)</sup>. ويصف السلطان فيصل بن تركي (ت: 1913م) بأنه «خبير بكيد النصارى»<sup>(30)</sup>. ويتكرر هذا التباين والتناقض حتى عند أبي مسلم البهلاني، فهو الذي قال ذات مرة: «ولا أزال أهتف بلسان الإنصاف ما دمت حراً، أن إنكلترا محط نظرها العدل ونسيج محور سياستها التمدين»<sup>(31)</sup>. وفي مناسبة أخرى يقول عن عدل هذه الدولة وأحكامها وسياستها<sup>(32)</sup>:

إلى متى يعركنا انكليزهم      وجورهم وكفرهم عرق المدى<sup>(33)</sup>  
إلى متى تقضمنا أضرارهم      إلى متى نحن لهم عبد العصا  
إلى متى تعركنا أحكامهم      إلى متى إلى متى إلى متى؟

هذا التفاوت في الروى والانتقال من اتجاه إلى آخر، لا يمكن أن يفسر إلا بناء على الاعتبارات السياسية، فالبهلاني حين مدح الإنجليز حدث ذلك إبان علاقته الوطيدة بالسلطة في زنجبار، وحين ساءت تلك العلاقة أبان عن رؤية أخرى يحملها وجدانه<sup>(34)</sup>. وأما الشاعر أبو الصوفي هو الآخر كان كاتباً للسلطان فيصل بن تركي (ت: 1913م)، ومن المقربين في بلاطه، واستمرت هذه العلاقة ولم تتبدل حتى وفاته، ولا يوجد مبرر منطقي للتباين الذي تحمله نصوصه تجاه «النصارى» إلا أنه يظهر ما يخالف شعوره، أو يكون قد رأى ما لم يره غيره، فهو الوحيد الذي خصص شعراً تغنى فيه بالمرأة الأوروبية؛ إذ كتب قصيدة في فتاة «من بنات النصارى» اسمها أليس، ومما قاله<sup>(35)</sup>:

فيوجهها روض تفتح زهره      عجباً لشمس قد تفتح بالزهر  
أليس مهلاً زوديني نظرة      إن الفؤاد على هواك قد انفطر  
فسمعت صوتاً مازجته حسرة      لله ما حكم الإله وما أمر

إن الزمان أخو التفرق والقلبي أبدا على حكم الفراق قد استمر

وأخيراً؛ وبالرغم من حالة القلق والتوجس التي سادت الوجدان العُماني، والصورة السلبية التي رسخت؛ إلا أنها لم تكن ثابتة تماماً، وتتبدل بفعل السياقات والأحداث والسلوكيات، وترافقها نظرات من الإعجاب والانبهار تجاه مظاهر وجوانب عديدة من الشخصية الأوروبية، وتمثل مقدمة لحقبة جديدة من حقبة الصورة الأوروبية في نصوص التراث العُماني.

## هوامش

1. الخليلي، محمد بن عبد الله، الفتح الجليل في أجوبة الإمام أبي خليل، تحقيق: عزالدين التنوخي، (دمشق: المطبعة العمومية، 1385هـ/1965م)، ص: 603.
2. البطاشي، إيقاظ الوسنان، ص: 81-82.
3. اليوسعيدي، مهنا بن خلفان، لباب الآثار الواردة علم الأولين والمتأخرين الأخبار، (مسقط: وزارة التراث والقومية والثقافة، 1406هـ/1986م)، ج: 9، ص: 255.
4. رسالة من السيد سعيد بن سلطان تاريخها 23 محرم 1222هـ/ 1/4/1807م، لحاكم موريشس، للاطلاع على الرسالة، انظر: الفاسمي، الوثائق العمانية الفرنسية، ص: 44-40.
5. رسالة كتبها السيد ثويني بن سعيد إلى حاكم الهند البريطاني عام 1859م، لدى الباحث نسخة إلكترونية.
6. السالمي، عبد الله بن حميد، العقد الثمين نماذج من فتاوى نور الدين فخر المتأخرين، تحقيق: سالم بن حمد بن سليمان الحارثي، (القاهرة: دار الشعب، بدون تاريخ)، ج: 4، 377.
7. اللابة: الجماعة في اللهجة العمانية، والروي: إشارة إلى مدينة زوي، ومعنى البيت يشير إلى معسكر القوة البريطانية في بيت الفلج خلال الثلث الأول من القرن العشرين.
8. الخليلي، سعيد بن خلفان، أجوبة المحقق، ط1 (مسقط: مكتبة الجيل الواعد، 1431هـ/2010م)، ج: 4، ص: 192.
9. السالمي، عبد الله بن حميد، جوابات السالمي، تنسيق عبد الستار أبو غدة، ط3، (بديعة: مكتبة السالمي، 1422هـ/2001م)، ج: 5، ص: 178.
10. رسالة من خان صاحب محمد سعيد إلى الوكيل السياسي إلى بريطانيا، يخبره بما يتداوله الناس عن السلطان سعيد بن تيمور عام 1937م، للمزيد حول الرسالة انظر: الحارثي، موسوعة الوثائق السرية، ج: 2، ص: 667-666.
11. السالمي، العقد الثمين، ج: 4، ص: 341.
12. للمزيد حول تاريخ ترجمة الكتب الدينية المسيحية انظر: زوير، صمويل، جزيرة العرب: مهد الإسلام، ترجمة أدهم مطر، (بيروت: مؤسسة دار الانتشار، 2019م)، ص: 422.
13. العبادي، عامر بن علي بن مسعود، ديوان أنوار الأسرار ومنازل الأذكار، ط1، (مسقط: مكتبة معالي السيد محمد بن أحمد بن سعود اليوسعيدي، 1417هـ/1996م)، ص: 194.
14. مجهول، شمس أدلة الخياري في كشف علماء النصارى، مخطوط، (مسقط: وزارة التراث والثقافة)، ص: 1-3، في نسخ المخطوط التي اطلع عليها الباحث، لم يصرح المؤلف باسمه.
15. مجهول، شمس أدلة الخياري، ص: 1-3.
16. السالمي، نور الدين، بذل الجهود في مخالفة النصارى واليهود، (بديعة: مكتبة الإمام نور الدين السالمي، 1995م)، ص: 1-3.
17. السالمي، بذل الجهود، ص: 1-3.
18. الحارثي، عيسى بن صالح، خلاصة الوسائل بترتيب المسائل، تحقيق محمد بن سعيد العمري، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 1427هـ/2006م)، ج: 1، ص: 284.
19. سيف بن ناصر البعري من الشخصيات المغمورة، كان حياً حتى أواخر النصف الأول من القرن العشرين، وله كتاب يعنون أول قطرة من طل بسيرة أبي محمد البطل، توجد نسخة منه بخط

- المؤلف بدار المخطوطات والوثائق بوزارة التراث والسياحة، برقم(٢٤٧٣).
20. البعري، سيف بن ناصر، أول قطرة من ظل في سيرة أبو محمد البطل. (مسقط: وزارة التراث والثقافة، مخطوط، رقم: 2468)، ج2، ص:
21. إميلي، مذكرات أميرة عربية، ص: 101.
22. الخليلي، الفتح الجليل، ص: 603.
23. وردت هذه العبارة في رسالة الإمام سالم بن راشد الخروصي إلى القنصل البريطاني في مسقط عام 1913م، للمزيد انظر: الحارثي، موسوعة الوثائق السرية، ج2، ص: 448.
24. السالي، خفة الأعيان، ج2، ص: 209.
25. السالي، العقد الثمين، ج4، ص: 368-369.
26. الحارثي، عين المصالح، ص: 61 وما بعدها.
27. السالي، محمد بن شيخان، ديوان ابن شيخان السالي، راجعه عبد الستار أبو غدة، (مسقط: المجموعة الصحفية للدراسات والنشر، 1416هـ/1995م)، ص: 232-233.
28. الجيزي، ديوان أبي الصوفي، مخطوط، وزارة التراث والثقافة، ص: 21 وما بعدها.
29. الجيزي، سعيد بن مسلم الجيزي، ديوان أبي الصوفي، تحقيق حسين نصار، وزارة التراث والثقافة، مسقط: 2004، ص: 75-76، وسوف نشير إليه لاحقاً. بديوان الصوفي، تميزاً له عن نسخة أخرى عادت إليها الدراسة.
30. الجيزي، الديوان المخطوط، ص: 51 وما بعدها.
31. نفسه، ص: 49.
32. البهلاني، ناصر بن مسلم، الآثار الشعرية لأبي مسلم البهلاني، تحقيق محمد الحارثي، (بيروت: منشورات الجمل، 2010م)، ص: 92.
33. البهلاني، الآثار الشعرية، ص: 531-475.
34. ورد هذا البيت في كتاب نهضة الأعيان كما أثبتناه هنا، للمزيد انظر: البهلاني، الآثار الشعرية، ص: 510.
35. تطرق الشاعر محمد الحارثي لهذا التباين في مواقف البهلاني، للمزيد انظر: البهلاني، الآثار الشعرية، ص: 91-92.



## خامسا: حقبة الإعجاب والانبهار

## خامساً: حقبة الإعجاب والانبهار

يصعب تحديد بداية مؤكدة لحقبة الإعجاب والانبهار، ولا يمكن فصلها تماماً عن الحقبة الأخيرة التي بدأت تظهر فيها صورتان متضادتان. وإجمالاً بدأت تبرز ملامحها بشكل لافت للنظر عقب وصول بعض العُمانيين إلى أوروبا، وانعكس ذلك على نصوص الرحلات. وتتوافر لدينا ثلاثة نصوص: الأول: مذكرات أميرة عربية. الثاني: تنزيه الأبصار والأفكار في رحلة سلطان زنجبار. الثالث: رحلة السلطان خليفة بن حارب. وسنركز على النصين الأول والثاني بسبب ضيق المقام في هذه العجالة، بوصفهما نموذجين من خلالهما نستجلي صورة أوروبا، وينتميان إلى القرن التاسع عشر الميلادي. فالنص الأول كتب بلسان امرأة عُمانية تركت تقاليد أسلافها، وانتقلت للعيش في أوروبا. بينما النص الثاني كتبه رجل رافق السلطان برغش بن سعيد(ت:1888م) في رحلته إلى أوروبا.

### مذكرات أميرة عربية

هذا النص أقدم النصوص الثلاثة، وإن لم يكتب بلغة عربية، ولم يوجّه إلى القارئ العربي، ومع ذلك، فالكتابة عُمانية هي السيدة سالمة بنت سعيد بن سلطان، وانتقالها إلى أوروبا لم ينزع منها جذورها الثقافية، ويتضح أثر نشأتها وتكوينها في طرق تفكيرها ونظرتها للآخر، إذ كانت دائماً ما تؤكد على انتمائها الشرقي والعربي، وشغوفة بهوموم وطنها<sup>(1)</sup>، حتى ذيلت مقدمة مذكرتها، بالعبرة الآتية «أميلي رويته أميرة عُمان وزنجبار بالولادة»<sup>(2)</sup>. بل تحرص على حثّ القارئ أن لا «يغفل عن أن الكاتبة كانت مسلمة وأنها



نشأت كُمسلمة»<sup>(3)</sup>.

عرفت السيدة سالمة بعض جوانب الحياة الأوروبية، وانجذبت نحوها وهي في زنجبار، وكوّنت علاقات مع بعض الأسر الأوروبية التي كانت تعيش في تلك المدينة؛ إذ تقول: « وقد كانت تربطنا أنا وأختي خولة علاقات صداقة مع أوروبيي زنجبار، عبرت عن نفسها في بعض الهدايا الصغيرة، كما تسمح به عادات البلاد. وحين كانت الأوروبيات يأتين إلى زنجبار كن يزرننا غالباً أنا وخولة فقط»<sup>(4)</sup>. وتعرفت من خلال تلك الزيارات على جوانب من نمط الحياة الأوروبية «إذ كانت السكاكين والشوك بالنسبة لنا شيئاً فائضاً، وكانت تخرج من مخبئها فقط حين كنا نستضيف أوروبيين»<sup>(5)</sup>. وكانت قصور والدها مليئة بالأثاث الأوروبي «الذي لم يوضع للعرض وإنما للاستعمال حقاً»<sup>(6)</sup>. وليس هذا فحسب؛ بل تحرص على إدانة إحدى أخواتها، لأنها «لا تشعر بالارتياح دائماً حالما تبلغنا أوروبية بنيتها في زيارتنا»<sup>(7)</sup>.

تعدت علاقة السيدة سالمة بالحياة الأوروبية مرحلة الإعجاب إلى مرحلة التمرّد على القيم والعادات التي نشأت عليها، وإن كانت عاطفة الحب دفعت فتاة عُمانية تنتمي إلى ثقافة القرن التاسع عشر الميلادي إلى التخلي عن جذورها؛ فإن معايير الحب والإعجاب بالطرف الآخر عملية معقدة، ولا يشكلها المظهر الخارجي والميل الطبيعي وحده؛ إنما تحفزها عوامل أخرى، لها علاقة بالأنماط الثقافية التي ينتمي إليها المعجب به، مثل نمط العيش والذوق، وحتى العرق لا يمكن فصله تماماً. ونلمح هذا المعنى في قولها: « تعرفت على زوجي المقبل بعد انتقالي من بوبو بوقت قصيرة ... وكثيراً ما شاهدت من أحد شبابيك الطابق الأعلى مجالس الرجال البهيجة التي كان ينظمها من أجل أن يريني وجبات الطعام الأوروبية. شاع في المدينة



## تنزيه الأبصار والأفكار في رحلة سلطان زنجبار

يعدُّ هذا النصُّ أول نصٍّ عماني كتب بغرض نقل ملامح من حياة المدن الأوروبية إلى الثقافة العربية، ويتباين فيه نصيب كل مدينة، فقد مرَّ على بعضها سريعاً، في حين أولى أهمية لتلك المدن التي نزلها السلطان برغش بن سعيد (ت: 1888م)، وكان نصيب المدن البريطانية أكثر من غيرها. وما يؤخذ على النصِّ تحرُّزه من إبداء وجهة نظره، فهو ينقل بعاطفة الإعجاب، دون إطلالة نقدية تجاه المظاهر الثقافية التي يراها إلا ما ندر، وكان يبدو حريصاً على تجنب التعبير عن نظرتة، يقول في هذا المعنى: «أما نحن فلا نتعرض لنمِّ أهل أوروبا ولا لنوم أهل المشرق في هذا الصدد؛ فلكل من الفريقين حججٌ يستند إليها في إثبات رأيه وما في الذوق جدال»<sup>(12)</sup>. اعتنى النصُّ بالجوانب الرسمية ولقاءات السلطان، ومن خلالها وثَّق بعينٍ عمانية صورة تلك المدن؛ بدءاً من وصف معالم المدنية الجغرافية والثقافية، وتحديد مواقعها، ويصف مشاعر سكان المدن البريطانية تجاه أحوال الطقس بقوله: «وقد صادف هذا اليوم أن كانت الشمس طالعة، وعظيم الأفراح عند أهل أوروبا يوم تطلع فيه الشمس»<sup>(13)</sup>. وأما مدينة برمينغهام، نظر إليها بأنها «حقيق بأن تسمى هذه المدينة (بيرمنهام) لأنها بيرمنهام - من - هام بالمعنى أي هي ينبوع ثروة الإنكليز الذين يهيمون بالذهب فضلاً عن غيرهم»<sup>(14)</sup>. وقدّم وصفاً لبعض المعالم الدينية والثقافية لمدينة لشبونة، بأنها تحوي كنيسة وخمسة وسبعين ديراً للربان والراهبات، ولها مكتبة فيها (80) ألف مجلد، وسكانها نحو (260) ألف نسمة»<sup>(15)</sup>. وحاول أن ينقل صورة عن عوائد الناس وتقاليدهم وأزيائهم الرجالية والنسائية، إلا أنَّ جُلَّ تركيزه كان على النخبة الإنجليزية<sup>(16)</sup>. ويقدم الإنجليز على أنهم «قوم يحافظون على عوائد جدودهم ويتمسكون بها غاية التمسك»<sup>(17)</sup>.

وحرص الكاتب على نقل مشاعر السلطان برغش ومن معه تجاه الكثير من المظاهر في المدن البريطانية بعين الرضا والإعجاب؛ فقد سرّتهم مناظر التحف والتماثيل والنقوش والرسومات داخل قاعات المباني، وزاروا تمثال الشاعر الإنجليزي شكسبير<sup>(18)</sup>. وأطربتهم الأنغام الأوروبية «من جملتها غناء مشهور من أغاني الأوبرا الايتليانية - هكذا- الذي مطلعته موسى بمصر...ولشدة سرور السلطان بهذا الغناء فضلا عما سواه أمر بإعادة الغناء ثانية. وهو حقيقة غناء مطرب في الغاية، وقد سمعته مرّات عديدة، وأنا أفضله على جميع أغاني الأوبرا»<sup>(19)</sup>.

ونقلت الرحلة صورة للنظم الإدارية والسياسية السائدة في بريطانيا، وتحدثت بإسهاب وإعجاب شديدين بالبرلمان البريطاني، الذي أطلق عليه دار الندوة، تيمناً بالدار المعروفة في مكة قبل الإسلام، يقول «دار الندوة الكبرى بلندن حيث يجتمع نواب الأمة وشرفاء المملكة لمعاطاة الأحكام ومصالح الأمة، وهي الدار المعروفة باسم برلمنت»<sup>(20)</sup>. و«تتألف دار الندوة من مجلسين كبيرين، أحدهما مجلس الأعيان ويحضره اللوردات والأمراء. وثانيهما مجلس نواب الأمة تحضره رجال تنتخبهم الأمة لينوبوا عنها في الذبّ عن مصالحها»<sup>(21)</sup>. ثم يواصل حديثه عن عوائد هذه الدار ونظمها وقانونها الأساسي، وعدد أعضائها، الذين «جرت العادة بتغييرهم أحيانا قبل ختام السنين السبع»<sup>(22)</sup>. ومن شدة إعجابه بهذه الدار طبع صورة دار الندوة بلندن في الكتاب؛ لأنه «من الأبنية الفاخرة المشهورة، رأينا أن نطبع رسمها في هذا الكتاب، ونصف ما فيها من المجالس والأماكن المشهورة في تواريخ الأمة البريطانية»<sup>(23)</sup>. وقدّم وصفاً للجانب المعماري، وتحدّث عن أروقته وأثاثه وما فيه من الغرائب، والقاعات المخصصة لرجال الدين والنساء، يقول: «وفي هذا المجلس من الغرائب

التي لا يدركها إلا القليلون تستحق الذكر، منها تشترط الشريعة البريطانية على النساء اللاتي يحضرن مجلس الأعيان بحجة الفرجة أن يجلسن في غرفات عالية وينظرن إلى الأعضاء من وراء مشبك من نحاس»<sup>(24)</sup>. حرص كاتب هذا النصّ على إظهار معالم الحضارة في المدن الإنجليزية، من الصناعات الحديثة، والأنفاق والسكك الحديدية، والقطارات، ومصانع الأسلحة، والنحاس، ودار سك النقود، ودار البريد وآلات البرق والهاتف، وقد هاله ما رآه، من مشاهد أرجعها إلى «استحكام القوى العقلية وذراية الإنكليز». وكان السلطان برغش «يود أن يرى بعينه ما قد أدركه بعقل الراجح. فأظهر رغبته في الذهاب إلى ويليج لمشاهدة عجائب معمل الأسلحة... وتعجب السيد ومن كان معه من تلك الأسلحة... التي قد أفرغت فيها العقول الذكية ما عندها من البراعة بحجة التمدن، وما ذاك لعمري إلا أقصى درجة من التوحش قد حمله الطمع البشري برداء التمدن والتقدم، وكان خيرا لو يفرغ المرء قوى عقله في اختراع آلات للعمران، ويزهد فيما يهلك الإنسان والحيوان، ولكن طبع المرء أقرب إلى الشرّ من الخير. فلما نظر السيد أعزه الله إلى تلك المدافع والكلل والقنابر والتوربيد-الطوربيد- وغيرها من الأسلحة الملكية قال متبرئا: العياذ بالله من شرها وشر الشيطان الرجيم. ولي ثقة بكم يا معشر الإنكليز أن لا تستخدموا هذه الآلات بحجة الغزو والطمع في إهلاك الأبرياء؛ وإنما تتخذونها لصيانة الملك، وحماية الضعيف ونجاة المظلوم»<sup>(25)</sup>. ويصف الكاتب حال السلطان برغش بعد أن رأى مصنع الأسلحة ومعمل صهر النحاس «قال لحشمه هلموا بنا إلى الصلاة؛ فقد انفتحت في وجوهنا أبواب جهنم ونارها والعياذ بالله منها»<sup>(26)</sup>.

وأخيراً؛ نقل نصّ الرحلة هذا ملامح ومظاهر لم يكن الذهن العُماني يراها ولا يتصورها حتى في الخيال، وكان حريصًا على نقلها بمشاعر من الانبهار والإعجاب، حتى تجاه وجود امرأة تحكم، كانت بالنسبة للرحالة من العجائب والأمور الغريبة، وأخذتهم الدهشة من رؤية «امرأة جالسة على كرسي مملكة عظيمة لا تغرب الشمس على سلطانها، وهي تحكم وتسوس ولا يجرى في الملك شيء بدون أمرها. فسبحان من أعطى هذه المرأة حكماً وعلمها الجلوس على العرش، وأيدها على سياسة الملك وجعل الأمة تنقاد إليها انقياد البنين لا انقياد العبيد»<sup>(27)</sup>.

## هوامش



1. المجيزي، سعيد بن مسلم، ديوان أبي الصوفي، تحقيق حسين نصار، وزارة التراث والثقافة، مسقط، بدون تاريخ، ص: 126-128.
2. إيلي، مذكرات أميرة عربية، ص: 5.
3. نفسه، ص: 10.
4. نفسه، ص: 27.
5. نفسه، ص: 352.
6. نفسه، ص: 75.
7. نفسه، ص: 74.
8. نفسه، ص: 37.
9. نفسه، ص: 325-326.
10. نفسه، ص: 54.
11. نفسه، ص: 91.
12. نفسه، ص: 41، 46، 56، 64، 65، 82، 86، 96، 97، 101.
13. سعيد، تنزيه الأبصار والأفكار، ص: 113.
14. نفسه، ص: 55.
15. نفسه، ص: 167.
16. نفسه، ص: 35.
17. نفسه، ص: 117.
18. نفسه، ص: 137.
19. نفسه، ص: 136.
20. نفسه، ص: 73.
21. نفسه، ص: 39.
22. نفسه، ص: 103-104.
23. نفسه، ص: 104-109.
24. نفسه، ص: 103.
25. نفسه، ص: 104.
26. نفسه، ص: 105.
27. نفسه، ص: 105.
28. نفسه، ص: 100.





## الخاتمة

استعرضت الدراسة مراحل تطور نظرة أهل عُمان للأوروبيين على مدى أكثر من أربعة قرون، بدءاً بنزول أول أمة أوروبية إلى السواحل العُمانية عام 1507م، وحتى منتصف القرن العشرين. وقد كان للعامل السياسي أثرٌ في تشكُّل صورة سلبية تجاه الأوروبيين، بسبب السلوك الرّامي إلى فرض الهيمنة السياسية والثقافية؛ إلا أن دخول أبعادٍ جديدة في علاقة عُمان بالشعوب الأوروبية، المتمثلة في العلاقات السياسية والرحلات العُمانية، خفّف من حدة تلك الصورة. وبناء على هذه الاعتبارات مرّت الصورة الأوروبية في الثقافة العُمانية بأربع مراحل:

الأولى: وصف مشاعر هذه المرحلة الملاح أحمد بن ماجد، حين صار حال الناس من البرتغاليين في خوف واهتمام، وإن تلك السفن البرتغالية بالإضافة إلى حملها التّقليل من الأسلحة المحشوّّة بالبارود والنيران، حملت معها أيضاً كرهاً وبغضاً للإسلام.

الثانية: نقلت نصوص الأدب في القرن السابع عشر الميلادي نظرة هذه المرحلة، إذ وسمت البرتغاليين بسمات الذلّ والخزي والعار، حتى صاروا كما يقول محمد بن مسعود الصارمي بعد هزيمة البرتغاليين في بتة بشرق أفريقيا:

كأنهم أعجاز نخل بها منقعر من عاصفات الرياح  
الثالثة: سادت فيها صورة تتسم بالحدز والشك من كل أوروبي، وأجملَ مشاعرَ الخوف والقلق في هذه المرحلة نورُ الدين السالمي حين قال:

إن غايتهم: «هدم الإسلام ويدخلون البلاد للتجسس عن عوراتها، فالداخل منهم جاسوس دولته... ومن سار به فهو معين له على سعيه الفاسد... ولو انسد على النصارى -الأوروبيين- باب الدخول في بلاد الإسلام لتعذر عليهم مع معرفة ما فيها من صلاح وفساد، وحين فتح الباب نظر الأعداء إلى العورات ووضعوا أقدامهم مواضع كانوا لا يعرفونها، ومدوا أيديهم إلى أشياء كانوا لا يطمعون فيها». الرابعة: خير معبر عن هذه المرحلة ما قاله زاهر بن سعيد البحري بعد أن رأى معالم الحضارة الأوروبية في لندن، وأرجعها إلى «استحكام القوى العقلية وذراية الإنكليز».

## المصادر والمراجع العربية:

## المصادر والمراجع العربية:

1. العبري، خميس بن راشد، شفاء القلوب من داء الكروب، (مسقط: مكتب المستشار الخاص لجلالة السلطان للشؤون الدينية والتاريخية، 1431هـ/2010م).
2. ابن قيصر، عبد الله بن خلفان، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 2017م).
3. سعيد، زاهر، تنزيه الأبصار والأفكار في رحلة سلطان زنجبار، رتبه وصوبه لويس صابونجي، (مسقط وزارة التراث والثقافة، بدون تاريخ).
4. اميلي، رويته- السيدة سالمة بنت سعيد-، مذكرات أميرة عربية، ترجمة سالمة صالح، (بيروت: دار الجمل، 2006م).
5. المغيري، سعيد بن علي، رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى أوروبا، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 1985م).
6. السعدي، ناصر بن سيف، نشأة الدولة في عُمان عام 1034هـ\1624م: دراسة في التحولات السياسية والاجتماعية. المنشورة ضمن أعمال مؤتمر: العرب: من مرج دابق إلى سايكس - بيكو (1916-1516) تحولات بنى السلطة والمجتمع من الكيانات والإمارات السلطانية إلى الكيانات الوطنية، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2019م).
7. حسين، علي، التنافس البريطاني - الفرنسي في عُمان 1749-1798م، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، عدد 2، ملحق 1، مجلد 47.
8. الشعلي، محمد بن حمد، التنافس البريطاني الفرنسي في عُمان 1913-1888م: دراسة سياسية، (مسقط: النادي الثقافي، 2014م).
9. بدول، د. آر، الاتفاقيات الدولية مع سلطنة عُمان، حصاد ندوة الدراسات العُمانية، (مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، 1400هـ/1980م).

10. هاليداي، فريد، الصراع السياسي في شبه الجزيرة العربية، ترجمة محمد الرميحي، (بيروت: دار الساقى، 2008م).
11. أيلتس، هرمان فردريك، سلطنة في نيويورك أولى رحلات الأسطول العُماني لأريكا عام 1840م، ترجمة محمد أمين عبد الله، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 2015م).
12. مجهول، مختارات من وثائق حكومة بومباي، ترجمة، عبد العزيز عبد الغني إبراهيم.
13. (الدوحة: مركز حسن بن محمد للدراسات التاريخية 2017م).
14. الحارثي، محمد بن عبد الله، موسوعة عُمان الوثائق السرية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006م).
15. البطاشي، سيف بن حمود، إيقاظ الوسنان في شعر وترجمة الشيخ خلف بن سنان، (مسقط: بدون، 1995م).
16. ابن رزيق، حميد بن محمد، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعديين، تحقيق، عبد المنعم عامر ومحمد مرسي عبد الله، (مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، 1997م).
17. السالمي، عبد الله بن حميد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان (مسقط: مكتبة الاستقامة، 1417هـ/1997م).
18. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (المتوفى 284هـ)، البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002م).
19. ابن شداد، بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشياك، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1994م).
20. بيشوب، موريس، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة علي السيد علي، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005م).

21. البطاشي، سيف بن حمود إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء أهل عُمان، (مسقط: مكتبة السيد أحمد البوسعيدي، بدون تاريخ).
22. الديبع، عبد الرحمن بن علي، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق يوسف شلحد، (صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني 1983م).
23. شنبل، أحمد بن عبد الله، تاريخ حضرموت المعروف بتاريخ شنبل، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، (صنعاء، مكتبة صنعاء الأثرية، 2003م).
24. الأزكوي، سرحان بن سعيد، تاريخ عُمان المقتبس من كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، ت: عبد المجيد حبيب القيسي، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 1407هـ\1986م).
25. المعولي، محمد بن عامر، قصص وأخبار جرت في عُمان، مسقط: وزارة التراث والثقافة).
26. الخلف، سعود بن عبد العزيز، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، (الرياض: مكتبة أضواء السلف، 1997م).
27. الكندي، محمد بن إبراهيم، المصنف، تحقيق مصطفى بن صالح باجو، (مسقط: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، 1437هـ\2016م).
28. السعدي، ناصر بن سيف، العلاقة بين العلماء والسلطة في عُمان 1913-1749م، أطروحة دكتوراة، غير منشورة، (مسقط: جامعة السلطان قابوس: 2020).
29. المجيزي، سعيد بن مسلم، ديوان أبي الصوفي، تحقيق حسين نصار، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 1437هـ/2016م).
30. السعدي، أحمد بن ماجد، ثلاث أزهار في معرفة البحار أحمد بن ماجد ملاح فاسكو دي جاما، تحقيق ونشر تيودور شوموفسكي، ترجمة محمد منير مرسي، (القاهرة: عالم الكتب، 1969م).
31. ابن رزيق، حميد بن محمد، الشعاع الشائع بالمعان في ذكر أئمة عُمان، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 1405هـ/1984م).

32. القاسمي، سلطان بن محمد، الوثائق العربية العُمانية في مراكز الأرشيف الفرنسية، (الشارقة: 1993م).
33. الخليلي، محمد بن عبد الله، الفتح الجليل في أجوبة الإمام أبي خليل، تحقيق، عزالدين التنوخي، (دمشق: المطبعة العمومية، 1385هـ/1965).
34. البوسعيدي، مهنا بن خلفان، لباب الآثار الواردة علم الأولين والمتأخرين الأخيار، (مسقط: وزارة التراث القومية والثقافة، 1406هـ\1986م).
35. السالمي، عبد الله بن حميد، العقد الثمين نماذج من فتاوى نور الدين فخر المتأخرين، تحقيق، سالم بن حمد بن سليمان الحارثي، (القاهرة: دار الشعب، بدون تاريخ).
36. الخليلي، سعيد بن خلفان، أجوبة المحقق، ط1 (مسقط: مكتبة الجيل الواعد، 1431هـ/2010م).
37. السالمي، عبد الله بن حميد، جوابات السالمي، تنسيق عبد الستار أبو غدة، ط3، (بديّة: مكتبة السالمي، 1422هـ/2001م).
38. زويمر، صمويل، جزيرة العرب: مهد الإسلام، ترجمة أدهم مطر، (بيروت: مؤسسة دار الانتشار، 2019م).
39. العبادي، عامر بن علي بن مسعود، ديوان أنوار الأسرار ومنازل الأذكار، ط1، (مسقط: مكتبة معالي السيد محمد بن أحمد بن سعود البوسعيدي، 1417هـ\1996م).
40. مجهول، شمس أدلة الحيارى في كشف علماء النصارى، مخطوط، (مسقط: وزارة التراث والثقافة).
41. السالمي، نور الدين، بذل المجهود في مخالفة النصارى واليهود، (بديّة: مكتبة الإمام نور الدين السالمي، 1995م).
42. الحارثي، عيسى بن صالح، خلاصة الوسائل بترتيب المسائل، تحقيق محمد بن سعيد المعمرى، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 1427هـ\2006م).

43. اليعربي، سيف بن ناصر، أول قطرة من طل في سيرة أبو محمد البطل، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، مخطوط، رقم: 2468).
44. السالمي، محمد بن شيخان، ديوان ابن شيخان السالمي، راجعه عبد الستار أبو غدة، (مسقط: المجموعة الصحفية للدراسات والنشر، 1416هـ/1995م).
45. البهلاني، ناصر بن مسلم، الآثار الشعرية لأبي مسلم البهلاني، تحقيق، محمد الحارثي، (بيروت: منشورات الجمل، 2010م).
46. سلوت، ب. ج. عرب الخليج في ضوء مصادر شركة الهند الشرقية الهولندية 1784-1602، ترجمة عائدة خوري، (أبو ظبي: المجمع الثقافي، 1993م).
47. هول، رتشارد، إمبراطوريات الرياح الموسمية، (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 1999م).
48. كتاب الخليج العربي من خلال نصوص الرحالين والمؤرخين البرتغاليين، ترجمة، أحمد إيبش، (أبو ظبي: دائرة الثقافة والسياحة، 2019م).
49. سجلات ألفونسو دلبوكيرك، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (أبو ظبي: المجمع الثقافي، 2000م).
50. الحسيني، سليمان بن سالم، الحملات التنصيرية إلى عُمان والعلاقة المعاصرة بين النصرانية والإسلام، (لندن: دار الحكمة، 2006م).
51. الفارسي، عبد الله بن صالح، البوسعيديون حكام زنجبار، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، بدون تاريخ).



### المصادر الأجنبية:

1. Portugal in the sea of Oman religion and politics research on documents. edited by Abdulrahman al-salimi and Michael Jansen. Georg olms verlag hildesheim-Zurich-new york:2018. vol 6.
2. Owtram. Francis Carey. Oman and west: state formation in Oman since 1920. A Theis submitted to the London School of Economics and Political Science in Candidacy for the degree of Doctor of philosophy. University of London. 1999.
3. Marshall. Brian: European travelers in Oman and south-east Arabia 1792-1950: a biobibliographical study. - in: New Arabian Studies. Vol. 2. - Exeter: University of Exeter Press. 1994.

المؤلف

## ناصر بن سيف السعدي باحث عُماني

باحث في تاريخ عمان، حاصل على درجة دكتوراه من جامعة السلطان قابوس.

المشاركات العلمية

نشأة الدولة العمانية عام 1624م، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، إبريل 2017م.

الجالية الهندية في منطقة الخليج العربي قبل النفط، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، مايو 2018م.

القيم الاجتماعية والثقافية في الشعر الشعبي العماني، الجامعة العالمية بماليزيا، ومركز ذاكرة عمان، ماليزيا، أكتوبر، 2017.

مضامين الخطاب الثقافي في أوائل المطبوعات العمانية، الجامعة العالمية بماليزيا ومركز ذاكرة عمان، ماليزيا، أكتوبر 2018م.

نظام التفرقة في التاريخ العماني "تنظيم جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربي، المنامة، إبريل 2015م.

اتفاقية السيب: 1920م، جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون الخليجي، المنامة إبريل 2016م.

المجتمع والسياسة في عمان من خلال جوابات الإمام الخليلي، نزوى، مارس 2016.  
البحر في التراث الفقهي العماني، مركز الدراسات العمانية، جامعة السلطان قابوس، أكتوبر 2018م

اسم عمان ودلالاته، مجلة ذاكرة عمان، العدد الثاني، يونيو 2019.

نشأة المدينة العمانية، مجلة ذاكرة عمان، العدد الأول، مارس 2019.



## ❖ إصدارات نزوى

- سيف الرحبي: حوار الأمكنة والوجوه بالاشتراك مع المجلس الأعلى للثقافة والفنون بمصر.
- إبراهيم المعمري: بهو الشمس.
- عبدالله الحراسي: دراسات في الاستعارة المفهومية.
- يحيى المنذري: بيت وحيد في الصحراء.
- محمد المحروقي: مغامر عماني في أدغال إفريقيا.
- زوينة خلفان: المرأة الواقفة تجلس.
- هلال الحجري: هذا الليل لي.
- طالب المعمري: القفار.. سردا.
- يحيى الناعبي: حياة بين شاهدين.
- يونس الأخرمي: نقوش.
- عبدالله البلوشي: معبر الدمع.
- ناصر البدري: هل؟
- هدى الجهورية: الأشياء ليست في أماكنها.
- عبدالمنعم الحسني: «دراسات في التصوير الضوئي».
- أحمد الهاشمي: بيت فوق سقف العالم.
- إبراهيم سعيد: سحر الكلام.
- هلال الحجري: حادثة الأسلاف.. إضاءات من الشعر العماني القديم.
- عائشة الدرمكي: سيميائيات النص الشفاهي في عمان.
- حسين العبري: الثقافة المخاتلة (مقالات).
- إحسان بن صادق اللواتي: في السرد العماني المعاصر.
- بدرية الوهبي: سراء الغابة.. معارج الخطابين.
- بدر الحمداني: مواء القطعة.
- زاهر السالمي: شهى خسارة كل شيء.
- عاصم الشيدي: تكلم لأراك.
- أحمد حسن المعيني: برأهمة العالم.. ومنبؤوه.
- محمود حمد: إني أحبك.. والهدية دمعتان.
- محمود الرحبي: مرعى النجوم.
- خالد البلوشي: التعددية الثقافية في عمان.. مرتكزاتها وإشكالاتها.
- زاهر بن حارث المحروقي: لولا الكتب.. قراءات في كتب مختارة.
- وليد النهباني: من تاريخ الموسيقى في عمان.. إشكاليات ونصوص.
- أوراق عمل: ندوة شبكة المصنعة الثقافية.. أمبرتو إيكو.. أنا فيلسوف أكتب الروايات
- عبدالعزيز الفارسي: رجل الشرفة: صياد السحب..
- عائشة السيفي: لا أحب أبي..
- عبد الرزاق الربيعي: ليل الأرملة.
- زاهر السالمي: القوانين الجوهرية للغباء البشري - كارلو م. سيبيولا (ترجمة).
- أحمد م الرحبي: انتقام تشيك الرهيب.. وقصص أخرى من الأدب الروسي المعاصر.
- محسن الكندي: التاريخ العماني وأحداث المجتمع في مدونات المحرر ناصر المسكري.
- سليمان المعمري: كائنات الردة.
- محمد السناني: تشيد البراءة وقصائد أخرى.
- زاهر الغافري: في كل أرض بشر تحلم بالحديقة.
- عزيزة الطائي: الذات في مرآة الكتابة.
- ناصر الكندي: ألف ليلة وليلة.
- أحمد الوهبي: رداء الديك.
- هلال البادي: هذه ليست كل الحكاية.
- بشاير حبراس: شبابيك زيانة.
- علي الرواحي: تحديات الاقتصاد الأخضر (عمان نموذجاً).
- خميس قلم: إنها موجة عالية.
- بدر الشيدي: تمثال الضحك.
- علي جعفر اللواتي: تاريخ المصارف العمانية (1948-2018)



# كتاب زوك

الغلاف:

صورة لميناء مسقط عام 1870م، وتظهر في الصورة  
ست سفن أوروبية تابعة للبحرية الملكية البريطانية،

طبع بمطابع وزارة الإعلام

رقم الايداع: 3704 / 2021 - التسلسل الدولي:

978-99969-3-721-7